وثائق خطيرة وشهادة للتاريخ

مذابح الهنود الحمر

رسائل
المطران برتولومي دي لاس كازاس

راجعه وصدّر له
د. محمد بن أحمد بن خلف الحسيني

قرأه وقدم له
الكاتب الإسلامي الكبير
محمد عبد الله السمان

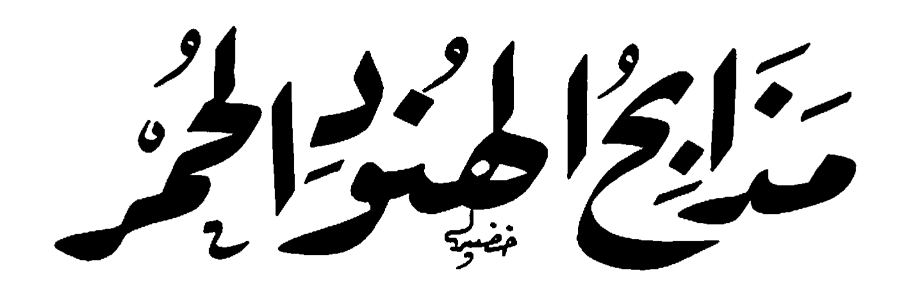
دار الفضيلة



دارُ الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦



رسائل

المطران برتولومي دي لاس كازاس

وثائق خطيرة وشهادة للتاريخ

راجعه وصدّر له

د. محمد بن أحمد بن خلف الحسيني

قرأه وقدّم له

الكاتب الإسلامي الكبير

محمد عبد الله السمان

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦



تقديم

الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ هو (شهادة تاريخية) يستعرضها كاتبها وهو القس الإسباني Bartolomede de Las Casas (برتولومي دي لاس كازاس) في كتاب تاريخي ، وقد حرر هذه البلاغات والشهادات من واقع ما رأى وشاهد ، وهو رجل دين صادق فيما يقول ويعمل .

فهو شاهد عدل ، وقد جُمِعَتْ تلك البيِّنات وخَرَجَتْ في كتاب باسم (مذبحةِ الهنود الحمر) .

وقد قامت السيدة سميرة عزمي الزِّين بترجمة أمينة لهذا الكتاب الوثيقة ، وهو من ضمن منشورات (المعهد الدولى للدراسات الإنسانية) بالولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان (من أجل الحقيقة) .

هذا وقد وُلد الكاتب في مدينة (إشبيلية) Sevilla في إسبانيا عام 1484 م ، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره أبحر مع الإسبان إلى (العالم الجديد) وهناك شاهد بأمِّ عينيه المذابح الوحشية التي أوقعها الإسبان بالسكان المحليين فى قارة أمريكا ، أي أصحاب تلك الأرض ، وارتاع من شدة ما رآه هناك من فظائع يندى لها جبين الإنسانية ، فكتب كتابه هذا عام 1542 م وأهداه إلى (الملك فيليب الثانى) لكي يطلعه على ما حدث هناك من وحشية ، وتُرجم الكتاب إلى معظم اللغات العالمية ومنها اللغة التركية ، حيث طُبع أربع

طبعات ، ومات هذا القس الرحيم في عام 1576 م في بلده إسبانيا .

ويصف الكاتب سكان أمريكا الأصليين فيقول : (الناس في منطقة « هاسبانو » « أي هاييتي اليوم » أناس بسطاء وطيبون بدرجة كبيرة . . . صبورون ، ومتواضعون ، وسذج جدًّا ومطيعون . . . وبعيدون عن الشرور ، وعن الحِيَل والخداع . . . وهم يبدون التزامًا كبيرًا بتقاليدهم ، ويطيعون الإسبان . . . ولا يتنازعون ولا يتقاتلون ، ولا يحملون حقدًا على أحد . . . لا تجد عندهم مشاعر الانتقام والحقد والعداء . . . هم فقراء جدًّا ، ولكنهم لا يحملون مشاعر الطمع والحرص والهموم . . . يسير أكثرهم بما يستر العورة فقط ، ويلفون حول أجسادهم قطعة صغيرة من القماش) .

ويضيف (ما أن رأى الإسبان هذا القطيع الوديع من السكان المحليين حتى هجموا عليهم هجوم الذئاب المسعورة الجائعة ، وهجوم النمور والأسود التي لم تذق طعم اللحم منذ مدة طويلة على قطيع الغنم ، ولم يتوقف هذا الهجوم فيما بعد ، بل استمر على المنوال نفسه حتى اليوم ، ولم يقم الإسبان هناك بشيء إلا بقتل وتقطيع أوصال السكان المحليين وتعذيبهم وظلمهم) .

ويتحدث المطران عن الأرقام التي يثبتها هذا الشاهد الإسباني عن المجازر التي قاموا بها فيقول : (عندما احتل الإسبان جزيرة « هاسبانو » Hispaniola « هاييتي » كان عدد السكان المحليين فيها (3) ملايين نسمة تقريبًا ، أما اليوم فلا يعيش منهم سوى (200) فرد ، أما جزيرة « كوبا » فهي فى حالة يرثى لها ، ولا يمكن العيش فيها ، مثلها فى ذلك مثل جزر « بورتريكا » و « جامايكا » .

ثم يقول : (نتيجة للظلم الذى اقترفه المسيحيون هناك خلال

أربعين عامًا ، والمعاملة غير الإنسانية مات أكثر من « اثنى عشر مليون » شخص ، بينهم العديد من النساء والأطفال حسب أكثر التخمينات تفاؤلاً ، أما تصوري الشخصي الذى أراه أكثر صوابًا فهو موت « خمسة عشر مليون » شخص ، (ولي أسبابى المعقولة في هذا الخصوص) .

ونقول : هل يستطيع إنسان أن يشترك في قتل كل هذا العدد من الناس وهم مثله فى الإنسانية ؟ . . ماذا كانوا يتصورون ؟ . . . أكانوا يقتلون ذبابًا ، أم حشرات ضارة ؟

يقول القس الإسبانى : إن الإسبان لم يكونوا ينظرون إلى السكان المحليين نظرتهم إلى إنسان ، بل كانوا يعدونهم أدنى حتى من الحيوان ، ثم يقول : (يا ليت الإسبان عاملوا هذا الشعب الساذج المطيع ، والصبور معاملتهم للحيوان ، إنهم لم يعاملوهم حتى كحيوانات برية ووحشية ، بل عاملوهم وكأنهم قاذورات متراكمة في الشوارع ، ولم تكن لهؤلاء السكان المحليين أدنى قيمة فى نظرهم ، لقد سار الملايين من هؤلاء إلى الموت دون أن يعرفوا ربهم ، بينما كان هؤلاء السكان المطيعون يعتقدون بأن الأوروبيين جاءوا من الجنة (لكونهم أتباع دين سماوي يحث على العدل والرحمة والتسامح) وذلك قبل أن يصدموا بظلمهم وقسوتهم) .

ولقد كانت جزيرة « هاييتي » هي الجزيرة الأولى التي شهدت قدوم الأوروبيين ؛ لذا كانت هي الجزيرة الأولى التي أُبيد سكانها عن بكرة أبيهم .

ويشرح هذا القس المحترم أشكال التعذيب والقتل التي مارسها هؤلاء الوحوش ، فيقول : (دخلوا مناطق السكان الآمنين بالقوة ،

وقتلوا كل من شاهدوه أمامهم . . . قتلوا الأطفال والشيوخ والنساء ، والنساء الحوامل ، وحتى النساء اللائي ولدن حديثًا ذبحوهن وقطعوا جثثهن ، وبقروا بطونهن مثلما تُبقر بطون الغنم ، وبدءوا يتراهنون : هل يستطيع أحد أن يشق رجلاً إلى نصفين بضربة سيف واحدة ؟ . . أم هل يستطيع أي واحد منهم بقر بطن أحدهم وإخراج أحشائه بضربة فأس واحدة ؟ .

أخذوا الأطفال الرضع من أحضان أمهاتهم وأمسكوا بأرجل هؤلاء الأطفال وضربوا رءوسهم بالصخور ، وبينما كان بعضهم يقوم بهذا ، كان الآخرون يضجون بالضحك ويتسلون برمي الأطفال إلى الأنهار وهم يصيحون : اسبح يا ابن الزنا . . . !) . . . هكذا إذن تصرف الأوروبيون المتحضرون !!

أما طرق تعذيبهم فتشيب من هولها الأبدان ، وهو يشرح كيفية تعذيبهم لزعماء وقادة هؤلاء السكان ، فيقول : (كانوا يثبتون قطعتين خشبيتين كبيرتين على الأرض ، ثم يصنعون « شواية » معدنية ويثبتونها عليهما ، ويأتون بأحد الزعماء (من الهنود الحمر) أو بأكثر من واحد ويضعونهم على هذه الشواية ويوقدون تحتها نارًا ضعيفة ، ويتركونهم يموتون ببطء وهم يئنون ويطلقون صرخات الألم ، وقد شاهدتهم مرة وهم يشوون أربعة أو خمسة من الزعماء المحليين ، وعندما أفسدت صرخاتهم نوم القائد في الليل أصدر أمره بخنقهم حالاً ليسكتهم ولكن رئيس فريق التعذيب الذي كان من أشد الظامئين إلى سفك الدماء ، لم يشأ قطع لهوه ولهو أصحابه بتعذيب هؤلاء وتمتعه بمنظرهم (وقد تعرفت على أقرباء له بمدينة Sevilla فيما بعد) لذا قام بوضع قطع خشبية بيديه في أفواه هؤلاء ليمنع صدور أي صوت

منهم ، ثم زاد من حدة النيران ، لأنه كان يريد قتلهم في الوقت الذي يرغب فيه .

ولقد شاهدت جميع هذه الفظائع بعيني ، وعندما بدأ بعض السكان المحليين بالهرب من ظلم ووحشية هؤلاء القتلة إلى الجبال قام هؤلاء القتلة بتدريب كلاب الصيد لتعقبهم ، وكانت هذه الكلاب عندما تصل إلى أحدهم تهجم عليه وتفترسه ، لقد اشتركت هذه الكلاب بحصة كبيرة في مثل هذه المذابح .

ولا شك بأن الناظر في هذا الكتاب سيشعر بحزن عميق ، وأسف بالغ لهذه المآسي الإنسانية ، حين يقرأ هذه السطور .

وإذ نتابع قراءة شهادة هذا القس الإسباني ذي الضمير اليقظ ، والقلب الرحيم نجده يقول : (... في إحدى المرات عَثَرَتْ مجموعة من الجنود الإسبان في أحد الجبال على جماعة من السكان المحليين الذين كانوا قد تركوا قراهم وهربوا من ظلم الغزاة ، ونزل هؤلاء الجنود ومعهم (70 – 80) امرأة وشابة بعد أن قتلوا جميع الرجال ، وما إن سمع رجال القرى هذا النبأ حتى لحقوا بالجنود لاستعطافهم والتوسل إليهم ليتركوا النساء ليرجعن إلى أقربائهن ، ولكن الجنود لم يترددوا كثيرًا إذ غرزوا سيوفهم في بطون النساء وبقروا بطونهن أمام أنظار هؤلاء الرجال الذين صرخوا من الألم : (آه ! ..... أيها الوضيعون !! ... أيها المتدينون المزيفون القساة !! .. لقد قتلتم نساءنا) .

هذه أمثلة موجزة للتقديم للكتاب فقط من آلاف الأمثلة الدالة على الوحشية والظلم والقسوة التي يحفل بها التاريخ الملوث ، لما يفعله

بعض بني الإنسان في إخوتهم من بني آدم الذي كرمه اللّه بسجود الملائكة المقربين له .

ولكن الغريب أن هذا التاريخ الملوث منذ ذلك العهد ، يمارسه الغزاة الظلمة في بلاد اللّه الواسعة أشكالاً مشابهة له .

وأيضًا تُمارس الضغوط على العالم الثالث بحجج كاذبة ، ودعاوى ملفقة بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ، دعوى لا تستند إلى واقع ولا تاريخ .

وصدق الشاعر العربي حين قال :

حَكَمْنَا فَكَانَ العَدْلُ مِنَّا سَجِيَّةً فَلَمَّا حَكَمْتُم سَالَتْ بِالدِّمَاءِ الأَبَاطِحُ
فَحَسْبُكم هَذا التَّفَاوتُ بَيْنَنَا فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالذَّي فِيه يَنْضَحُ

والقارئ الكريم بعد هذا لا يحتاج إلى مقارنات عديدة ، فقد وضح السبيل للسارى .

والله من وراء القصد . .

د. محمد بن أحمد بن خلف الحسيني

23 محرم الحرام 1428 هـ

11 يناير 2007 م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم / محمد عبد الله السمان

حين بعث إليَّ صديقى الأستاذ طه عاشور بكتاب « مذابح الهنود الحمر » لمؤلِّفه المطران برتولومى دي لاس كازاس ، الذي وصفه المؤرخ الفرنسي الشهير مارسيل باتييون ، بأنه أهم شخصية في تاريخ القارة الأمريكية ، بعد مكتشفها « كريستوفر كولومبوس » وإنه ربما كان الشخصية التاريخية الوحيدة التي تستأهل الاهتمام في عصر اجتياح المسيحيين الإسبان لهذه البلاد . . وحين قرأت الكتاب . أحسست - لأول مرة - بالرهبة والتأني فيما يسطره قلمي المتواضع .

وقيمة هذا الكتاب - الذي يؤرخ لفترة حرجة في تاريخ البشرية ، ولم تجد من يمنحها حقها من الاهتمام والإنصاف - ترجع قيمته إلى أمور أربعة :

1- أن المؤلِّف كان معاصرًا للأحداث ، ويقولون : « ليس من رأى كمن سمع » .

2- أن المؤلِّف كان ينتمى إلى جنسية من يؤرخ عنهم ، وليس في حاجة إلى أن يفترى عليهم ، وهذه شهادة يعتز بها ، وقد اعتبرها كتاب اللّه - في قصة يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [يوسف : 26] حيث قبلت شهادته دون أدنى مطعن . أضف إلى ذلك أن المؤلِّف من رجال الدين .

3- أن هذا الكتاب يعرى حضارة الغرب المسيحى المدعاة ، ويكشف عن سوءاتها ، ويضم أفكار وألباب المفتونين بهذه الحضارة الزائفة ، ممن ينتمون إلى الإسلام بحكم شهادات مواليدهم .

4- أن هذا الكتاب يفرض علينا الاهتمام بمثل هذه الدراسات التاريخية المحايدة التي تعتبر وثيقة تبرئة للإسلام من اتهامات الغرب المعاصر بالتعصب وهواية سفك الدماء ، كما تعتبر صفعة على وجه الغرب المتدني الذي يتشدق بالمدنية ، وينطبق عليه المثل المشهور : « رمتنى بدائها وانسلت » !!

● لم أكن مبالغًا حين ذكرت أنني أحسست بالرهبة وأنا أقرأ الكتاب ، بل بدأ رذاذ من صدمة نفسية أرهبتني وأنا أقرأ مقدمة الناشر بقلم الدكتور / محمد بن أحمد بن خلف الحسينى ، وهي مقدمة جديرة بالتقدير أضافت إليَّ اعتبارات الكتاب اعتبارًا جديدًا ، فبعد أن عرض قول المؤلف : « كانوا يسمون المجازر عقابًا وتأديبًا لبسط الهيبة وترويع الناس كانت هذه سياسة الاجتياح المسيحي ، أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة ، هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها .. مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة » عقَّب الدكتور بقوله : « لقد تعرّى « لاس كازاس » - أي المؤلف - من كل شيء ، ولم يبقَ منه إلا الإنسان ، فما رأته عيناه لم يره أحد من العالمين . كان الإسبان الذين معه - رهبانًا وطغاة - لا يرون في دم قتلاهم إلا الذهب الذي يسرقونه ، أما « لاس كازاس » فلم يبقَ له من إسبانيته إلا الخجل والعار ، ومن مسيحيته إلا الخيبة والمرارة ، وكان في شهادته التاريخية النادرة على إبادة سكان القارة الأمريكية وحيدًا فريدًا ، كان إنسانًا لا إسبانيًا ولا مسيحيًا ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يتهمه في دمه الإسباني ، ولا في دينه المسيحي » !

وأضاف : هذا أعظم ما في شهادة « لاس كازاس » على وحشية قومه المسيحيين ، كان يتحدث عن الإسبان ويقصد المسيحيين ،

ويتحدث عن المسيحيين ويقصد الإسبان ، وكان يشكو ويتألم من القتلة الطغاة ، ومن التبشير والمبشرين ، وإنه كثيرًا ما كان يصف لك القاتل والمبشر في مشهد واحد ، فلا تعرف ممن تحزن ، أمن مشهد القاتل وهو يذبح ضحيته ، أو يحرقها أو يطعمها للكلاب ، أم من مشهد المبشر الذي تراه خائفًا من أن تلفظ الضحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليها بالعماد (التعميد) فيركض إليها لاهثًا يجرجر أذيال جبته وغلاظته ، وثقل دمه لينصّرها .. بعد أن نضج جسدها بالنار أو اغتسلت بدمها ، أو التهمت الكلاب نصف أعضائها وأحشائها » ؟!

لم يكونوا يقتلون - كما يقول الدكتور - بل يتلذذون بالقتل ، ولم يكونوا يعذبون ويبطشون ، بل كانوا يستمتعون ويطربون لمشهد العذاب والبطش ، ولقد اخترعوا في فترة التعذيب ما يضاهي اختراعاتهم في فنون القتل .. هذه شهادات على إبادة أمة من عشرات الملايين من البشر ، أو على ما يسميه « لاس كازاس » بدمار « بلاد الهند » - كما كانت تُسمى .

فهل أبالغ بعد ذلك إذا قلت : إني أُصبت بالرهبة وأنا أقرأ الكتاب ، وأُصبت بالتوتر وأنا أكتب هذه المقدمة !

● كانت مقدمة المؤلِّف : رسالة إلى أمير إسبانيا دوق فيليب ، يذكر فيها ما شاهدته عيناه من فظائع وحشية ارتكبها جيش الإسبان في بلاد الهنود الحمر : « إن المرء يا سمو مولاي ، لا يستطيع أن يتخيل أبدًا أن في قدرة البشر أن يقوموا بمثل هذا التخريب .. لقد عشت في هذه البلاد الهندية أكثر من خمسين عامًا ، وشاهدت بأم عينى ما ارتكبوه من فظاعات وجور .. إن كل سماح باستمرار الفتوحات ، يعني سماحًا بتكرار الفظاعات . فما تلقاه الشعوب الهندية المسالمة

المتواضعة المرهفة ، ليس إلا طغيانًا وجورًا .. يدينهما كل قانون وضعيًا كان أم إلهيًا ، إنها أفعال مرذولة ملعونة .. ولهذا ، عزمت على أن أبرئ ساحتي من هذه الجريمة بألا أسكت عنها ، وأن أحدثكم عما جناه الطغاة ، وعما أزهقوه من أرواح ، وآذوه من أجساد . عزمت على أن أكتب عن النزر اليسير منها ، لأني عاجز - في الحقيقة عن أن أكتب عنها كلها » !

● أعتقد أن القارئ يعي أن المقام في مقدمة لا يتسع إلا لمجرد وقفات سريعة ، وأن هناك متسعًا من الوقت للقارئ أن يستوعب كل ما في هذا الكتاب ، داعيًا اللّه له أن يرحم أعصابه من التوتر ، ومن اللقطات التي توقفت عندها :

(أ) التبشير أولاً ، والاستعمار ثانيًا :

مما لا يعيه كثير من الناس : أن التبشير والاستعمار ، وجهان لعملة واحدة ، مع ملاحظة أن التبشير كان أسبق من الاستعمار ، وقد أشار الدكتور الذي راجع الكتاب وقدَّم له - إلى أن القرارات البابوية ، هي التي منحت ملوك إسبانيا حق امتلاك أراضي ما وراء البحار ، وكان هذا الحق يعني - كما تحدث المؤلِّف عنه - « نهب البلاد وإفناء العباد » وكانت القرارات البابوية تقضي بأن يكون التبشير أولاً ، والاستعمار ثانيًا ، أي أن يكون للرهبان أولوية على العسكر الغزاة ، وأن تكون الغنائم للكنيسة كما للدولة ، واكتشف الرهبان أن العسكر قد تولوا أمر التبشير بأنفسهم وعلى طريقهم ، وأن ذهب العالم الجديد قد طار من يد الكنيسة ، يقول « لاس كازاس : « كان الرهبان يلهثون وراء الذهب ، فالرهبان والعسكر متفقون على سرقة البلاد ، عسكرًا

ورهبانًا ، العسكر يريدون الذهب بتعذيب الأجساد وقتلها ، والرهبان يريدونه بتعذيب الأرواح وقتلها ، وكان الجميع يشهرون سيف المسيح » .

(ب) وحشية الإسبان مع المسلمين :

لو لم يكن في تاريخ الصليبيين بعامة ، سوى « محاكم التفتيش » التي جرت في مسلمي إسبانيا - بعد أن أُخرج المسلمون منها بسبب شهوات أمرائهم - يكفي هذا أن يكون صفعة قاسية على وجوه أهل الصليب سجلها التاريخ في صفحة حالكة السواد ، ويذكر الدكتور في مقدمته ، أن « لاس كازاس » رأى كل ذلك بعينيه ، وأرسل الرسائل العديدة إلى ملك إسبانيا يستعطفه ويطالبه بوقف عذاب هؤلاء البشر ، ولم يجد من الملك إلا أذنًا مصرة على الصمم ، فكان الإسبان باسم المسيحية ، يسفكون دماء المسلمين الأندلسيين الذين ألقوا السلاح ، وتجردوا من وسائل الدفاع عن حياتهم وحرماتهم ، وكان تنكيلهم بهم لا يقل وحشية عن تنكيلهم بهنود العالم الجديد ، لقد ظلوا يسومون المسلمين أنواع التعذيب والتنكيل والقهر والفتك طوال مائة سنة ، فلم يبقَ من الملايين الثلاثين مسلم واحد .

كانت محاكم التفتيش التي تطارد المسلمين وتفتك بهم ، ورجال التبشير الذين يطاردون الهنود الحمر ويفتكون بهم ، من طينة واحدة ، تدل على ما وصلت إليه قلوب المزعومين على المسيح - عليه السلام - من غلظة وقسوة ووحشية !!

أقول : ما زال الغرب الصليبي بإعلامه يتهم الإسلام بدعوته إلى التعصب والتشدد والإرهاب !

(ج) الكلاب المدربة تأكل الهنود :

يعلم اللّه - الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - أن جسدى كله اقشعر بمجرد قراءة العنوان ، وألقيت بالقلم جانبًا حتى أسترد توازني ، وحسب هذه الجريمة البشعة أن يكون مرتكبوها ممن يدعون كذبًا أنهم أهل حضارة ، ويزعمون افتراء أنهم يلبون دعوة المسيح - عليه السلام - الداعى إلى المحبة والسلام والسماحة .

يقول « لاس كازاس » : وما لبث الهنود أن اخترعوا طريقة لأذى الإسبان ، كانوا يهيئون حُفرًا صغيرة على الطرقات التي يسلكها الإسبان بأحصنتهم ، وكانت هذه الحفر تملأ بالأوتاد المسنونة الحادة لقتل الأحصنة ، وكانت هذه الحفر تُغطى ، وعندما تنبه الإسبان إلى ذلك قرروا الانتقام ، فكلما التقطوا هنديًا ألقوا به في هذه الحفر حيًا ، مهما كان عمره أو جنسه ، كانوا يرمون فيها الحبالى والمرضعات والشيوخ والأطفال ، وكان مشهدًا يبعث على البكاء حين كنا نمر بالقرب من هذه الحفر الممتلئة بالهنود ، وقد اخترقت الأوتاد أجسادهم ، وكنا نرى الكلاب تعيش على لحم هؤلاء المساكين ، وقد ارتكب الإسبان هذه المجازر منذ 1524 م حتى 1531 م وأترك للقارئ عدد القتلى » !

(د) الطفولة والمأساة :

لم يسلم الأطفال من جرائم الإسبان الهمج ، فيذكر « لاس كازاس » أن الهنود كانوا يقدمون للإسبان أولادهم (الصبيان والبنات) حتى ملأوا منهم سفنًا كاملة ، ومن يرفض فجزاؤه القتل ، وقد قتل القبطان الإسباني المجرم وأخوه أكثر من أربعة أو خمسة ملايين نسمة

ما بين 1524 م و 1540 م وحدث أن كان هذا القبطان المجرم متوجهًا بجيش من عشرة آلاف أو أكثر ، ومعه عدد كبير من الهنود الذين ساقهم عبيدًا بعد تعذيبهم ، وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام ، ولكن سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم ، أو الذين يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى . . هكذا صار معسكره أشبه بمسلخ يتراكم فيه لحم البشر . . كان الإسبان الهمج يقتلون الأطفال ويشوونهم ، وكانوا يقتلون الرجال من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه ، قائلين : إنها أشهى لحم الإنسان !!

وكان الشاعر العربي على حق حين قال :

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى
وَصَــوَّتَ إِنْسَــانٌ فَكِــدْتُ أَطِيــرُ

• **والتاريخ يعيد نفسه :**

لم تنفرد إسبانيا في استعمارها بهذه الجرائم الشرسة ، لأن سائر الدول الأوروبية التي مارست الاستعمار ، لم تتورع عن أن تسلك ما سلكته إسبانيا في استعمارها بلاد « الهنود الحمر » وحسبك أن الاستعمار الفرنسي للجزائر منذ عام 1830 م كبَّد في سنواته الأخيرة شعب الجزائر مليون شهيد . . وأن الاستعمار الإيطالي في ليبيا ، لم يتورع عن أن يعدم شيخًا تجاوز السبعين من عمره بطريقة بشعة ، هو المجاهد عمر المختار .

إن مقياس الحضارة الإنسانية الحقة : موقفها من الإنسان : عرضه ودمه معًا ، وهذا ما تجاهلته حضارة الغرب المدعاة . وما حدث من الإسبان منذ زهاء ستة قرون ، حدث والبداية لم تنتهِ بعد ، ووجه

الغرابة أن يحدث اليوم بعد التقدم العلمى ، ووصول الإنسان إلى سطح القمر ، والغرب – مدعى الحضارة – يعتبر مصالحه المادية فوق قيمة الإنسان الذى كرمه اللّه وفوق مبادئ الأخلاق التي لا تستقيم الحياة بدونها .

وعلى قمة الحضارة المدعاة تقف أمريكا شامخة ، ترتدى ثوب الرياء الذي يشفّ عما تحته ، فإذا التحفت به فإنك عارٍ – كما يقول الشاعر العربي ، جرائمها في الماضى القريب ، يوم أن دكت طائراتها إبان الحرب العالمية الثانية العاصمة اليابانية (طوكيو) وقتلت أكثر من 150 ألف نسمة ، ويوم ألقت قنبلتها الذرية على هيروشيما ونجازاكى ، ولا يحصى عدد ما قتلته من أنفس ، وما دمرته من عمران ، ويبدو أن أمريكا لم ترتوِ بعد من الدماء البشرية ، فقامت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 م بإبادة أفغانستان المسلمة ، وبعد عامين قامت بغزو العراق بدعوى كاذبة تأكد كذبها .

● وحتى لا ننسى :

يقولون : « التاريخ ذاكرة الأمم » وواضح أننا اليوم ، قد وضعنا أصابعنا فى آذاننا حتى لا نسمع هذه العبارة ، فما يفعله الغرب الصليبي بنا ليس ابتداء ولا ابتداعًا ، بل متابعة وتقليدًا لما فعلته الحروب الصليبية ، ومحاكم التفتيش في إسبانيا ، والتاريخ يشهد أن الفتح الإسلامي لإسبانيا كان حضاريًا ، بل ونجدة لشعب إسبانيا الذي كان يعانى الأمرّين من نظام حكم مستبد ، وعربدة كنيسة كانت تبيع للمقهورين صكوك الغفران . وما أن تمكن النصارى من هزيمة المسلمين حتى ارتكبوا فى الفلول أبشع ألوان البطش والتمثيل

والتعذيب ، وبرغم أن عددًا من المسلمين وافق على اعتناق المسيحية ، إلا أن ذلك لم يمنع عنهم التجسس والمضايقة والملاحقة .

ولقد عرض المؤرخ المعروف (ول ديورانت) في موسوعته : « قصة الحضارة » لطرف ممن الأحداث : أشار إلى أن الإسبان كانوا يعتقدون أنهم يخوضون حربًا مقدسة ضد الإسلام .

قال عن الملك « فيليب الثانى » : إنه كان شديد الإباحية ، ولهوه المفضل أن يخرج ليلاً متخفيًا ، ليمارس شتى الشهوات المبتذلة في المواطن المألوفة للرذيلة « فيليب » هذا لما بلغه أن المغاربة المسلمين الباقين ، ما زالوا يمارسون شعائر الإسلام ، برغم تظاهرهم بالكثلكة ، أصدر أمرًا عاليًا عام 1567 م يحرم ممارسة العادات الإسلامية . ويحظر استخدام اللغة العربية واقتناء الكتب العربية . ثم كان طردهم من إقليم غرناطة وشتتوا بين الجماعات المسيحية في قشتالة ، وأودع أطفالهم في البيوت المسيحية ، وجعل حضور هؤلاء الأطفال المدارس المسيحية إجبارًا .

وأضاف : إن أباه قد خلف له الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام ، وفي عام 1570 م انضم إلى البندقية والبابوية في حرب صليبية ، تنهى سيادة الأتراك المسلمين على البحر المتوسط .

وفي عام 1602 م قدم (خوان دي ليبيرا) رئيس أساقفة (بلنسية) المذكرات إلى فيليب الثالث ، يحضه فيها على طرد جميع المغاربة المسلمين الذين تزيد أعمارهم على السابعة ، وقال فى تفسيره للكوارث التي نزلت بإسبانيا : إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها (الكفار) فهؤلاء (المسيحيون المزيفون) يجب ترحيلهم وإرسالهم

لسفنْ العبيد أو شحنهم بالمراكب ليشتغلوا عبيدًا في المناجم . هذا ولم تُجْدِ احتجاجات مُلاك الأراضي الذين كانوا ينتفعون من تأجير المغاربة المسلمين بأجور زهيدة .

أقول : برغم احتجاج الملاك - لمصلحتهم بالطبع ، استجيب لطلب كبير الأساقفة الذي أصبح قديسًا ، وصدر الأمر بمرسوم عام 1609 م بطرد مسلمي بلنسية ، وأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم ، تنقلهم إلى إفريقية ، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . . وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة ، وساروا إلى الموانئ يتعثرون في شقائهم ، وسُرق منهم الكثير ، وقُتل البعض وهم في طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها ، فلما وصلوا إلى إفريقية تهللوا لبلوغهم أرضًا إسلامية ، إلا أن ثلثيهم هلكوا جوعًا أو قُتلوا باعتبارهم مسيحيين ، ثم توالت حركات طرد أخرى لمن بقى من المسلمين في غير إقليم بلنسيه ، وهكذا : نزعت أملاك (400,000) من أكثر أهل إسبانيا إنتاجًا وأقصوا عن البلاد . . وكان هذا الإجرام البشع في أعين الشعب الإسباني من أعظم منجزات الحكم ، وتطلع الإسبان السذج إلى عهد أكثر رخاء بعد أن استرضوا الإله بتخليص البلاد من الكفار .

وواضح أن الإسبان هم أشد أهل الصليب تعصبًا وضراوة في أحقادهم ضد الإسلام والمسلمين وحسبنا ما فعلوه بمسلمى الفلبين ، ونحن نحرص على أن نستشهد بكتابات صادرة عن غير المؤرخين المسلمين ، حيث لا مطعن في شهادة كاتب مؤرخ غربى ، إذا كنا بصدد أمر يتصل باضطهاد يمارسه الغرب ضد أقلية مسلمة ، ففي مجلة « **رابطة العالم الإسلامي** » مقال لمؤرخ غربي منصف عن أحوال

المسلمين في الفلبين ويحمل عنوان « عذراء ماليزيا » قام بترجمته والتعليق عليه الدكتور مصطفى مؤمن ، وتبسط في التعليق والشرح الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي في كتابه : « علل وأدوية » ومن عبارات المقال :

« إن لجنة تنمية (ميندناوا) وضعت خطة لتطوير الصناعات هناك غايتها إقصاء المسلمين وإحلال العمال الصليبيين محلهم بحجة أن العمال المسلمين لم يتلقوا تدريبات ومن ثم كانت نسبة العمال المسلمين في هذه الصناعات واحدًا في الألف » .

وجزيرة (ميندناوا) يسودها المسلمون وهم كثرتها الكبرى ، بيد أن التنظيم الإداري للبلاد ، كان همه تشتيت الجماعات المسلمة ، وتفتيت كتلتها ، وإلحاق الفئات المهمّشة بمناطق يسودها النصارى ، وذلك لإفناء وطمس الشخصية الإسلامية ويقول المؤلف : « إن جماعة (إيجلاس) أو (الفئران) هي أخطر الجماعات الكاثوليكية وأشدها تعصبًا ضد المسلمين ، ولها تنظيم سرى هدفه الأول : الاستيلاء على الأرض الإسلامية وإبعاد أهلها عنها ويتدرب هذا التنظيم في إسرائيل .

أقول : وماذا في هذا ! والكفر ملة واحدة !

كانت هناك تسعيرة للتنكيل ، وحفزًا للهمم لإلحاق الأذى بالمسلمين والتنكيل بهم ، وضعت تسعيرة بالمكافآت التي تصرف لمن يصيب مسلمًا بإحدى العاهاتِ ، ابتداء بالأذن ، وانتهاء بالعين ، مرورًا بالأنف والإصبع والكف ، يقول الدكتور مصطفى مؤمن : « إن الرئيس ماركوس ، يؤمن بالمثل القائل : فم يُسبِّح ، ويد تذبح . . » .
ويَصِمُ الشيخ الغزالى هذا الرئيس بأخس الصفات : الإساءة إلى من

أحسن إليه . . فطالما أعلن للمسلمين أنه مدين بحياته لجندى مسلم ، أنقذه من الموت إبان القتال مع اليابانيين . . وبرغم هذا ، فإن أصابع الاتهام كلها تشير إليه ، بل لا تشير إلا إليه في جميع المجازر والجرائم ، وحمامات الدم ، التي تسبح فيها جثث الضحايا من المؤمنين الموحدين .

ويؤكد الشيخ الغزالي - معتمدًا على وثائق التاريخ التي اتسم مدونها بالإنصاف والحيدة وصحوة الضمير - يؤكد أن ماركوس أنموذج عادي لأسلافه من الكاثوليك الإسبان الذين غزوا جزيرة سولو ، وسائر الجزر الإسلامية المجاورة ، ونشروا فيها النصرانية بالسيف ، وأطلقوا عليها اسم (الفلبين) نسبة إلى الملك فيليب أحد الذين أطاحوا بالوجود الإسلامي في الأندلس .

بدأ غزو الإسبان لهذه البلاد في القرن 16 الميلادي ، وإبرازًا للغاية المنشودة منه فقد رصت جثث المقاومين الشجعان على نحو هيئة صليب ، وكان - كما يقول المؤلف : « إنه أول صليب صنع من أجساد المسلمين ، ونرجو أن يكون آخرها ، إن الحقد والكراهية سيطرت على الغزاة ، والمأساة أن ما حدث كان بتشجيع الكنيسة ، وحسبك أن تقرأ أن الحاكم الإسباني العام (فرانسيسكو دى ساندي) أصدر أمرًا لقائد الحملة المغيرة على أرض الإسلام هذا نصه :

« إنى آمرك بسد أفواه الدعاة إلى دين محمد . . إنه دين شرور وآثام . . وليس هناك من بديل عن النصرانية ، عقيدة ودينًا . . ولما كان الدعاة القادمون من (بورنيو) مثلهم يعني إخوانهم في جزر سولو ومينداناوا . . وغيرها . فواجبك مصارحتهم بأن غرضنا هو تعميم النصرانية ، ولدى اعتناقهم لها سنتركهم في أرضهم يعملون دون أن

يصيبهم أذى من سادتهم النصارى الإسبان ، ونرصد بقوة من يدعو إلى دين محمد ، فألقِ القبض عليه ثم سقه إليَّ ، مكبَّلاً مخفورًا » .

وبعد أفلم أقل لكم : إننا فقدنا ذاكرة التاريخ ، ونسينا جرائم الغرب الصليبي ، وصرنا أصدقاء له ، لا صداقة الند للند ، بل خضوع العبيد لسادتهم ؟!

● **الحروب الصليبية من جديد :**

إن كتاب الراهب لاس كازاس ينبغى أن يوقظ ذاكرتنا التي استرخت في قيعان النسيان . ويوقظ مشاعرنا التي تبلدت واستمرأت التبلد ، وعلَّة هذا : أننا فرطنا في إسلامنا ، وتنازلنا عن ولاية اللّه لنا لولاية الطاغوت ، وكان لا بد أن تبعث الحروب الصليبية من جديد ، وفي كتاب جديد للكاتب الأديب البحريني الأستاذ عبد الرحمن على بن فلاح ، المشرف على الصفحة الدينية بجريدة « أخبار الخليج » يقول تحت عنوان : « الغرب يستأنف حروبه الصليبية » :

« الحروب الصليبية ضد الإسلام لم تنته بعد وهذه حقيقة لا يمكن الجدال حولها - وأقولها : ضد الإسلام لا ضد المسلمين » ؛ لأن الإسلام هو المستهدف ، أما المسلمون ، فهم أتباع للغالب عسكريًا وحضاريًا ، ولا جدال في أن الغرب في هذه الآونة هو المنتصر . . وأن المسلمين هم المنهزمون . . أما الإسلام ، فلن ينهزم مطلقًا ، إنه دين اللّه الخاتم الذي تكفَّل بحفظه ورعايته ونشره . . ومن هنا تأتي القسوة والشدة في الحروب المعلنة والخفية ضد الإسلام ، وكلما كان الخصم شديدًا وعنيدًا ، كلما احتاج لهزيمته استخدام كافة الأسلحة أيًا كانت درجة خستها ودناءتها وضعتها » !! « السباحة ضد التيار » .

● **وأخيرًا وليس آخرًا :**

لا وجه للمقارنة بين الإسلام وهذه الموجة الصليبية التترية : السابقة واللاحقة ، فقد سمحت الكنيسة للصرب الخنازير في البلقان أن يغتالوا جنسيًا . . المسلمات الحرائر ، وأن يلعب الجنود الأوباش الكرة في الشوارع برءوس الشهداء من المسلمين ، وحدث ما هو أبشع في سجن جوانتمالا وسجن بغداد على سمع وبصر أمريكا وذيولها من أوروبا .

بينما الإسلام (المتهم) الذي يواجه هجمة شرسة من الغرب الصليبي ، هو الذي يوصى أتباعه في فتوحاتهم : بألا يقتلوا شيخًا ولا امرأة ولا طفلاً ولا راهبًا ، في إحدى الغزوات ، قاد بلال فتاة من السبايا لترى جثة أبيها الصريع ، فصرخت ، فقال له الرسول ﷺ : « يا بلال : أنزع اللّه الرحمة من قلبك ؟ » وإلى الذين يتهمون الإسلام بالتعصب ، نقدم إليهم ما قاله شاب إيطالي وهو متجه إلى ليبيا لقتال أهلها :

« يا أماه : أتمى صلاتك ولا تبكى ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحًا مسرورًا ، لأبذل دمى في سبيل سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية ، التي تجيز البنات الأبكار للسلطان .

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن . . ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليًا حقًا . . لا تموتى لأننا في طريق الحياة ، وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك ، ولكن اذهبى في كل مساء وزورى قبرى ، ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذى يأبى الحداء على قبر فلذة كبدك ، وإن سألك أحد عن عدم حدائك علىَّ ، فأجيبيه : إنه مات في محاربة الإسلام !! » .

مقدمة

يقول المؤرخ الفرنسى الشهير « مارسيل باتييون » : إن مؤلف كتابنا « برتولومى دى لا كازاس » أهم شخصية فى تاريخ القارة الأمريكية بعد مكتشفها « كريستوف كولومبوس » ، وإنه ربما كان الشخصية التاريخية الوحيدة التى تستأهل الاهتمام فى عصر اجتياح المسيحيين الإسبان لهذه البلاد .

لولا هذا المطران الكاهن الثائر على مسيحية عصره وما ارتكبته من فظائع ومذابح فى القارة الأمريكية لضاع جزء كبير من تاريخ البشرية ، فإذا كان « كولومبوس » قد اكتشف لنا القارة ، فإن « برتولومى » هو الشاهد الوحيد الباقى على أنه كانت فى هذه القارة عشرات الملايين من البشر الذين أفناهم الغزاة بوحشية لا يستطيع أن يقف أمامها إلا مستنكرًا لها ، شاكًا فى إنسانية البشر الذين ارتكبوها ، متوجسًا خائفًا من تكرار بعض مشاهدها فى عالم صارت فيه السِّكين أبلغ الواعظين ، وأتقى الأتقياء وسلطان الحجج والبراهين .

المؤلف فى سطور :

وُلد « برتولومى دى لاس كازاس » عام 1474 م فى قشتالة الإسبانية ، من أسرة اشتهرت بالتجارة البحرية ، وكان والده قد رافق « كولومبوس » فى رحلته الثانية إلى العالم الجديد عام 1493 م ، أى فى السنة التالية لسقوط غرناطة وسقوط الأقنعة عن وجه الملوك الإسبان والكنيسة الغربية ، كذلك فقد عاد أبوه مع « كولومبوس » يصحبه عبدٌ « هندى » ، فتعرّف « برتولومى » على هذا العبد القادم من بلاد الهند الجديدة ، بذلك بدأت قصته مع بلاد الهند وأهلها وهو ما يزال صبيًا فى قشتالة يُشاهد ما يرتكبه الإسبان من فظائع بالمسلمين ، وما يريقونه من دمهم وإنسانيتهم قبل أن

يراهم يسفكون دم الهنود وإنسانيتهم فى العالم الجديد ، لقد جرى الدّمان بالخبر اليقين أمام عينى هذا الراهب الثائر على أخلاق أمته ورجال كنيستها ، وبعثات تبشيرها : دم المسلمين ، ودم الهنود سكان القارة الأمريكية .

وبعد أن أنهى (لاس كازاس) دراسة اللاهوت أبحر إلى جزيرة « سان دومينغو » (وكان يُطلق عليها فى ذلك الزمان اسم الجزيرة الإسبانية) عام 1502 م ، ثم عُين كاهنًا فى عام 1513 م ، وكان بذلك أول راهب إسباني يعين رسميًا فى بلاد الهند الغربية التى اجتاحها الإسبان .

لماذا سميت أمريكا ببلاد الهند ؟

وكانت هذه البلاد قد سميت ببلاد الهند ، وسُمى أهلها بالهنود لأن « كريستوف كولومبوس » حين وصل إلى القارة الأمريكية ، ظنها شبه الجزيرة الهندية ، ولم يصدق فى البداية أنه قد اكتشف للعالم قارة جديدة ، بذلك سميت تلك القارة ببلاد الهند ، وسُمى أهلها بالهنود ، أو ما يُعرف عند العامة بالهنود الحمر .

وكان ملك إسبانيا قد أقطعه مستعمرة عاش فيها ، وأعطاه سلطة مطلقة تضمن حق الحكم بالحياة والموت على أى هندى ، كما أقطع معظم الإسبان الغزاة تلك الأراضى التى لا يملكها ، ومنحهم تلك الحقوق التى أدت إلى إفناء الملايين من الأبرياء..

وعاش « لاس كازاس » فترة فى « سان دومينغو » ، ثم انتقل إلى كوبا ، وما لبث أن قرف واشمأز من وحشية الغزاة بعد أن شاهد بعينيه المذابح الدموية التى ارتكبها المسيحيون فى جزيرة كوبا ، ووصفها لنا وصفًا مذهلاً فى كتابه الآخر « تاريخ الهنود » ، وكانت نقطة التحول فى حياة ذلك الراهب الذى صار ملعونًا من أبناء أمته الإسبان ومكروهًا من

كنيسته وإخوانه الرهبان ، أما الملوك الإسبان فكانوا يُمعنون فى غيهم كلما أمعن فى النصح لهم ، وأما إخوانه الرهبان فكانوا كما وصفهم أحد الزعماء الهنود لا يعبدون إلا الذهب ، ولقد وصفهم « لاس كازاس » بقوله :

« كانوا يسمون المجازر عقابًا وتأديبًا لبسط الهيبة وترويع الناس ، كانت هذه سياسة الاجتياح المسيحى : أول ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة فيها . . مجزرة ترتجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة » .

لقد تعرى « لاس كازاس » من كل شىء ، ولم يبق منه إلا الإنسان ، فما رأته عيناه لم يره أحد من العالمين . كان الإسبان الذين معه ، رهبانًا وطغاة ، لا يرون فى دم قتلاهم إلا الذهب الذى يسرقونه ، أما « لاس كازاس » فلم يبقَ له من إسبانيته إلا الخجل والعار ومن مسيحيته إلا الخيبة والمرارة ، وكان فى شهادته التاريخية النادرة على إبادة سكان القارة الأمريكية وحيدًا فريدًا ، كان إنسانًا ، لا إسبانيًا ولا مسيحيًا ، ومع ذلك فإن أحدًا لا يستطيع أن يتهمه فى دمه الإسبانى ، أو فى دينه المسيحى .

وهذا أعظم ما فى شهادة « لاس كازاس » على وحشية قومه المسيحيين .

كان يتحدث عن الإسبان ويقصد المسيحيين ، ويتحدث عن المسيحيين ويقصد الإسبان ، وكان يشكو ويتألم من القتلة الطغاة ومن التبشير والمبشرين ، وإنه كثيرًا ما كان يصف لك القاتل والمبشر فى مشهد واحد فلا تعرف ممن تحزن : أمن مشهد القاتل وهو يذبح ضحيته أو يحرقها أو يطعمها للكلاب ، أم من مشهد المبشر الذى تراه خائفًا من أن تلفظ الضحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليها بالعماد ، فيركض إليها لاهثًا يجرجر أذيال جبته وغلاظته وثقل دمه لينصِّرها بعد أن نضج جسدها بالنار أو اغتسلت بدمها ، أو التهمت الكلاب نصف أعضائها وأحشائها ؟!

ونقل إلينا صورًا ساخرة عن طريقة التبشير حين كانت الحملة تصل إلى

المدن والقرى الهندية بعد منتصف الليل ، وكانت تعلن على الهنود باللغة الإسبانية التى لا يفهمها أحد :

« يا سكان القرية (أو المدينة) إننا نعلمكم بوجود إله ، ووجود « بابا » ووجود ملك قشتالة سيد هذه الأراضى ، فاخرجوا وأعلنوا الطاعة ، وإلا فإننا سنحاربكم ونقتلكم » .

وكان الفجر ينبلج عن حَمّام الدم وأفق الضحايا البريئة ، « كانوا ينصبون المشانق فى مجموعات ، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقًا ، من أجل تكريم وتبجيل السيد المسيح وحوارييه الاثنى عشر » ! وكما قال « لاس كازاس » عن الإسبان : « لقد قتل المسيحيون كل هذه الأنفس البريئة ، وفتكوا كل ذلك الفتك باسم الدين .. وكم من جرائم ارتكبوها باسم التبشير » .. « لقد ظل الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن اللّه أرسلهم لفتح هذه البلاد التى كانت آمنة مطمئنة ، وأن اللّه هو الذى نصرهم على هذه الأمم ، كانوا يحمدون اللّه فى صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات ، ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان » .

ولم يكن « لاس كازاس » مبالغًا فى وصفه ، بل كان يعتذر من عجزه عن وصف كل ما جرى ، ويعتقد أنه ليس هنالك من يستطيع أن يسرد ما حصل فعلاً ، إن العقل الجسور والخيال الجموح ليعجزان عن الفهم والإحاطة ، فإبادة عشرات الملايين من البشر فى فترة لا تتجاوز الخمسين سنة هَوْل لم تأتِ به كوارث الطبيعة ، ثم إن كوارث الطبيعة تقتل بطريقة واحدة ، أما المسيحيون الإسبان فكانوا يتفننون ويبتدعون ويتسلون بعذاب البشر وقتلهم ، كانوا يجرون الرضيع من بين يدى أمه ويلوحون به فى الهواء ، ثم يخبطون رأسه بالصخر أو بجذوع الشجر ، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون ، وإذا جاعت كلابهم قطعوا لها أطراف أول طفل هندى يلقونه ، ورموه إلى أشداقها ، ثم أتبعوها بباقى الجسد ، وإن المرء لا

يستطيع أن يصدق أن الإسبان المسيحيين الذين جاءوا إلى العالم الجديد ليبشروا بدين « المحبة » كما يزعمون كانوا يقتلون الطفل ويشوونه من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين : إنها أشهى لحم الإنسان .

التلذذ بالقتل والتعذيب :

لم يكونوا يقتلون بل يتلذذون بالقتل ، ولم يكونوا يعذبون ويبطشون ، بل كانوا يستمتعون ويطربون لمشهد العذاب والبطش ، ولقد اخترعوا فى فن التعذيب ما يضاهى اختراعاتهم فى فنون القتل وسأترك للقارئ أن يعرف ذلك من شهادات المؤلف التى تركها لنا فى هذا الكتاب النادر ، إنها شهادات هَزّت أعماق الكثيرين من أبناء أوروبا وأمريكا حين نُشرت ، وتركتهم يعيدون النظر فى تاريخهم وأخلاقهم وديانتهم المسيحية ، شهادات على إبادة أمة من عشرات الملايين من البشر ، أو على ما يسميه « لاس كازاس » بدمار بلاد الهند .

التبشير أولاً والاستعمار ثانيًا :

كانت القرارات البَابَوِيّة هى التى منحت ملوك إسبانيا حق امتلاك أراضى ما وراء البِحار ، وكان هذا الحق يعنى ، كما تحدث عنه مؤلف كتابنا : « نَهب البلاد وإفناء العِبّاد » ، وكانت القرارات البابوية تقضى بأن يكون التبشير أولاً ، والاستعمار ثانيًا ، أى أن يكون للرهبان أولوية على العسكر الغُزاة ، وأن تكون الغنائم للكنيسة كما للدولة ، واكتشف الرُهبان أن العسكر قد تولوا أمر التبشير بأنفسهم وعلى طريقتهم ، وأن ذهب العالم الجديد قد « طار » من يد الكنيسة ، ولم يبقَ أمام الرهبان إلا الشكوى ، ويصف لنا « لاس كازاس » بعض الرهبان يلهثون وراء الذهب ، ويحدثنا عن رئيس المطارنة الذى كان يرسل خدمه ليأتوه بحصته منه ، لقد كانوا جميعًا متفقين على سرقة البلاد ، عسكرًا ورهبانًا ، هؤلاء يريدون الذهب

بتعذيب الأجساد وقتلها ، وأولئك يريدونه بتعذيب الأرواح وقتلها ، وكانوا جميعًا يشهرون سيف المسيح ، والمسيح - عليه السلام - براء منهم ومن أعمالهم وأخلاقهم .

وحشية الإسبان مع المسلمين :

رأى « لاس كازاس » كل ذلك بعينيه ، وأرسل الرسائل المتعددة إلى ملك إسبانيا يستعطفه ويسترحمه ويطالبه بوقف عذاب هؤلاء البشر ، وكانت آذان الملك الإسبانى لا تسمع إلا رنين الذهب ، ولماذا يشفق الملك على بشر تفصله عنهم آلاف الأميال من بحر الظلمات ما دامت جرائم عسكره ورهبانه فى داخل إسبانيا لا تقل فظاعة عن جرائم عسكره ورهبانه فى العالم الجديد ؟ كان الإسبان ، باسم الدين المسيحى الذى يبرأ منه المسيح - عليه السلام - ، يسفكون دم الأندلسيين الذين ألقوا سلاحهم ، وتجردوا من وسائل الدفاع عن حياتهم وحرماتهم ، وكان تنكيلهم بهم لا يقل وحشية عن تنكيلهم بهنود العالم الجديد ، لقد ظلوا يسومون المسلمين أنواع التعذيب والتنكيل والقهر والفتك طوال مائة سنة فلم يبقَ من الملايين الثلاثين مسلم واحد ، كما ساموا الهنود تعذيبًا وفتكًا واستأصلوهم من الوجود .

كانت محاكم التفتيش التى تطارد المسلمين وتفتك بهم ، ورجال التبشير الذين يطاردون الهنود ويفتكون بهم من طينة واحدة تدل على ما وصلت إليه قلوب أولئك المزعومين على المسيح - عليه السلام - من غلظة وقسوة ووحشية .

براءة الهنود :

وواضح من وصف المؤلف أن الهنود الذين أبادهم الإسبان كانوا من أكثر شعوب ذلك الزمان براءة وطيبة ، وقد كان هذا مقتلهم ، فكلما سمعوا بوصول الإسبان إليهم خرجوا إليهم مرحبين يحملون إليهم الهدايا ، وكان

الإسبان دائمًا يأخذون منهم الهدايا ويقتلونهم على الفور ، أو يدعونهم إلى سفنهم ليبحروا بهم ويبيعوهم عبيدًا ، وكان هذا « السيناريو » يتكرر فى معظم القرى والمدن الهندية . . . ومع ذلك ظل الهنود لا يصدقون أن بإمكان هؤلاء أن يقتلوهم ، ولم يعرفوا لماذا يقتلونهم ، وقد قال عنهم « لاس كازاس » : « إن هذه الشعوب أسعد أهل الأرض ، وإن بلادهم أسلم بلاد الله وأكثرها طمأنينة . . . إنها شعوب رضية لا تعرف الشر ، طيبة بالغة الوفاء ، بل إنها أكثر الشعوب تواضعًا وصبرًا ومسالمة وسكينة ، إنها لا تعرف الضغينة ولا الصخب ولا العنف والخصام ، شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية ، وتعف عن الثأر والانتقام ، شعوب مرهفة ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق ، وسرعان ما يهلكها المرض . . . ولقد غشى الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنمور والأسود الوحشية التى لم تجد طعامًا أيامًا وأيامًا . . . » .

ألا ترى أنهم فتكوا بهم كما فتكوا بنا فأصابوهم وأصابونا فى مقتل واحد ، ألا ترى أن الحروب الصليبية لم تتوقف عن حملاتها المعلنة إلا بعد أن اكتشف الغربيون ما يطفئ عطشهم إلى الذهب والدم فى القارة الأمريكية ، ألا ترى أن هذه الحملات لم تعد إلى بلادنا بصورتها الجديدة إلا يوم استنفد الغربيون أغراضهم من القارة الأمريكية فجعلوها لهم أرضًا وتاريخًا ودينًا ، كما كانوا يريدون لبلادنا أن تكون لهم أرضًا وتاريخًا ودينًا ، وما زالوا يريدون ، وأنها سيرة تتكرر هنا وهناك . . . سيرة البندقية والتوراة التى تروى هنا لأول مرة لقراء العربية فتسد فراغًا كبيرًا حول أصل هذه الإبادات وأخلاق أهلها وجنسهم ودينهم .

فى عام 1514 م قرر « لاس كازاس » أن يضع قانونًا للإصلاح ، وأن يقنع ملك إسبانيا فرديناند العجوز بضرورة تنفيذه ، محاولاً التوفيق بين مصلحة الخزينة الإسبانية وبين إنقاذ الهنود من الإبادة ، غير أن فرديناند

تُوفى وخلفه « شارل كانت » الذى لم يقبل بإعادة النظر فى الاجتياح الإسبانى ، بل إنه خطط لاستعمار ما تبقى من القارة ، وبعث بالقائد الشهير « كورتيس » لغزو المكسيك وبيزار والبيرو .. وفى عام 1520 م أبحر « لاس كازاس » إلى منطقة كومانا على الساحل الفينزويلى ، وكان شاهدًا على الحرق والقتل والدمار الذى ارتكبه المسيحيون الإسبان فى فنزويللا ، كما شاهد الهنود وهم يثورون لأول مرة على هذه المذابح والفظائع ، وكيف أن الأمبراطور الإسبانى أرسل حملات تأديب تميزت بوحشيتها الشديدة ، وارتكبت مزيدًا من المذابح ، بل إن أتباع « لاس كازاس » من الرهبان اشتركوا فيها واستشروا .

وكان هذا الفشل المر منعطفًا حاسمًا فى حياة هذا الكاهن الثائر فتخلى عن كل أملاكه ، وأقلع عن التعاون مع الإسبان نهائيًا ، وانصرفُ إلى الدراسة والبحث ، وكتب رسالته الشهيرة إلى المجلس الإسبانى عام 1531 م قائلاً فيها :

لقد قال السيد المسيح : « هائنذا[1] أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب » ، فلماذا يا سيادتي ترسلون الذئاب الجائعة المتوحشة التى تذبح وتهلك النعاج ؟ .

وأحرز « لاس كازاس » شيئًا من النصر فى عام 1540 م حين منحه حاكم غواتيمالا الإسبانى منطقة « حراما » أوكل إليه أمر تحويلها إلى أرض سلام . . . غير أن موجة التهديد والعدوان ثارت عليه فى كل الإمبراطورية الإسبانية فأخفقت التجربة ، لكنه لم ييأس ، بل توجه إلى مدريد وواجه الأمبراطور ، وأقنعه بوضع قوانين الإصلاح الداعية إلى إلغاء عبودية الهنود وإبادتهم ، وهي القوانين التي لم تنفذ أبدًا ، ثم طويت فى أدراج النسيان .

(1) بالأصل : هانا ، والصواب ما أثبتناه « المحقق » .

وعاد إلى المكسيك عام 1544 م ، ولم يبقَ فيها أكثر من عامين زهق فيهما من عنت المستعمرين الغزاة ومظالمهم ، وحين طالب بتدخل القضاء ضحك منه القضاة وتخلوا عنه كما تخلى عنه أعضاء أسقفيته ، ثم تعرض للسباب والشتائم والإهانات من إسبانيا ومن البلاد المَغْزُوَّه ، وكلها يجمع على أنه عدوٌ لأسبانيا .

وكانت نهاية التجربة المرة التى عاد بعدها إلى إسبانيا ، وأمضى السنوات العشرين الأخيرة من حياته فى عزلة كاملة يؤلف ويرد على التهم التى توجه إليه .

وبعد ، فهذا هو الكتاب الثانى من سلسلة « من أجل الحقيقة » ، بعد كتاب « المسيح الدجال » للفيلسوف نيتشه ، وإنه لَيُنشر لأول مرة بالعربية لإضاءة هذا الجانب المظلم من الاجتياحات المسيحية .

إن أحدًا لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبادهم الغزاة الإسبان ، ثمة من يقول : إنهم مائتا مليون ، ومنهم من يقول : إنهم أكثر ، أما « لاس كازاس » فيعتقد أنهم مليار من البشر ، ومهما كان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبا بسبعة عشر مرة ، وها قد صاروا الآن أثرًا بعد عين .



مُقَدِمَةُ المؤلِف

من المطران برتولومى دى لاس كازاس

إلى سمو أمير بلاد إسبانيا المعظم مولانا دوق فيليب

إننى أُريد أن أحدثكم يا سُمُوّ مولاى عن الشرور والآثام ، وعن الدمار والخراب فى هذه الممالك الكبيرة ، أقصد هذا العالم الجديد الشاسع المسمى ببلاد الهنود [الحمر] التى وهبها اللّه لملوك قشتالة وأناطها بهم ليسوسوها ويصلحوا أمرها ويهدوا أهلها إلى المسيحية فينعموا عليها بأمل الدنيا والآخرة .

وإن المرء لا يستطيع أن يتخيل أبدًا أن فى قدرة البشر أن يقوموا بمثل هذا التخريب ، لقد عشت فى بلاد هذه الشعوب الهندية أكثر منْ خمسين عامًا وشاهدت بأم عينى ما ارتكبوه من فظاعات وجور ، ولو أن سموكم علم بالنزر اليسير من هذه الفظائع لتوسل إلى جلالتها أن تمنع الطغاة من طغيانهم باسم الفتوحات ، إن كل سماح باستمرار الفتوحات يعنى سماحًا بتكرار الفظاعات ، فما تلقاه الشعوب الهندية المسالمة المتواضعة المرهفة ليس إلا طغيانًا وجورًا يدينهما كل قانون ، وضعيًا كان أم إلهيًا ، إنها أفعال مرذولة ملعونة ، ولهذا عزمت على أن أبرئ ساحتى من هذه الجريمة بأن لا أسكت عنها ، وأن أحدثكم عما جناه الطغاة وعما أزهقوه من أرواح وآذوه من أجساد . عزمت على أن أكتب عن النزر اليسير منها لأننى عاجز فى الحقيقة عن أن أكتب عنها كلها ، ولقد أردت أن أوجز لأجعل أمر قراءتها يسيرًا على سموكم .

وكان رئيس أساقفة طليطلة قد طلب منى رواية هذه الأحداث ، وقدمها إلى سموكم ، ولعلكم لم تطلعوا عليها ، أو لربما نسيتموها فى غمرة مشاغلكم الملكية المتعددة ، أو أسفاركم الطويلة فى البرّ والبحر .

ثمة استهتار وطيش يتعاظمان فى أنفس هؤلاء الذين يسفكون كل هذه الدماء ، ويستأصلون هذه الأراضى الشاسعة من أهلها وأصحابها بقتل مليار من البشر ، وبنهب الكنوز التى لا تقدر بأثمان ، إنهم يحتالون بأساليب مختلفة من أجل أن تسمحوا لهم بالمضى فى الفتوح التى لا يمكن السماح بها من غير الاعتداء على حرمات اللّه ، واختراق القوانين الطبيعية ، ومن غير اقتراف الخطايا المنكرة التى تستأهل العذاب الشديد .

لهذا رأيتُ لزامًا علىّ أن أُقدم لسموكم رواية شديدة الإيجاز لتاريخ طويل من الأذى والدمار ، ولا بد من كتابة هذا التاريخ ذات يوم ، إننى أتوسل إلى سموكم أن تقرأوا هذا الكتاب وأن تولوه بالعطف والرعاية اللتين تولونهما رعيتكم الوفية ، وإننى أتمنى عليكم أن تسترحموا جلالتها وتقنعوها بوقف هذه الفتوح الشنيعة ، وذلك بعد أن تقرأوا هذه الرواية الموجزة وتصيروا على علم بوحشية الظلم المستفحش بهذه الكائنات البريئة التى نمثل بها ونقطعها إربًا إربًا من أجل الجشع والطمع ليس إلا ، إننى أسترحمكم أن تقنعوا جلالتها بوقف الفتوحات والتخويف من استمرارها تخويفًا لا يجرؤ بعد ذلك أحد على طلب الإذن بها ، إن ذلك يا مولاى المبجل أمر جلل لا بد منه إذا كنا نريد أن يوفق اللّه مملكة قشتالة ويسبغ عليها السعادة والرخاء . . . آمين .

رواية موجزة جدًّا لدمار الهنود الحمر

اكتشاف الأمريكتين

اكتُشِفتْ بلاد الهنود [الحمر] سنة 1402 م ، ثم استوطنها الإسبان في السنة التى تلتها ، وتدَفقت عليها جُموع كبيرة منهم على مدى تسعة وأربعين عامًا ، أما أول أرض دخلوها فهى التى تُسمى بالجزيرة الإسبانية السعيدة الواسعة التى يبلغ محيطها ستمائة فرسخ والتى تطوقها جزائر أخرى متعددة واسعة ، ولقد رأيناها جميعًا مكتظة بالسكان من الهنود الحمر كأى أرض أخرى مأهولة فى العالم .

وكان أقرب مكان إلى اليابسة يبعد عن الجزيرة 250 فَرْسخًا[1] . ولهذه اليابسة عشرة آلاف فرسخ من الساحل المعروف ، وفى كل يوم تُكتشف مساحة إضافية . كل هذه الأراضى التى تم اكتشافها حتى عام 1541 م كانت تعج بالحياة والبشر كأنها خلايا النحل ، حتى ليخيل إلى المرء أن اللّه أحلَّ فيها أكبر عدد ممكن من البشر .

خلق اللّه هذه الشعوب الغفيرة رضية لا تعرف الشرَّ والرياء ، إنها شعوب طيعة بالغة الوفاء لأسيادها الطبيعيين وللمسيحيين الذين تخدمهم ، بل إنها أكثر الشعوب تواضعًا وصبرًا ومسالمة وسكينة ، إنها لا تعرف الضغينة ولا الصخب والعنف والخصام ، شعوب تجهل الحقد وسوء الطوية ، وتعف عن الثأر والانتقام ، شعوب مرهفة رقيقة الحاشية ناحلة هزيلة لا تطيق أجسادها الرهق ، وسرعان ما يهلكها المرض مهما كان ، إن أبناء أمرائنا ونبلائنا الذين ترعرعوا فى ظل

---

(1) الفرسخ يقدر بحوالى : (5565 مترًا) ، وقيل : (11130 مترًا) .

الرفاهية والرخاء وخضرة الحياة أقوى عودًا منها ، بل أشد بأسًا من فلاحيها . شعوب فقيرة لا تملك الوفر بل تعف عن متاع الدنيا ؛ لهذا لا تعرف الكبر والجشع والطموح ، وليس طعامها بأحسن أو أكثر أو أتعس من طعام الرهبان فى الصحارى ، وتراهم عراة يمشون لا يسترون إلا عوراتهم ، ويغطون أجسادهم بغطاء من القطن ، يفترشون الحصير ، وينامون فى ما يشبه الشبكة المعلقة .

إن لهم ذهنًا ثاقبًا شديد الوضوح ، وهم أذكياء منفتحون لكل عقيدة صالحة وتراهم يلحون على معرفة الشاردة والواردة ، إن كثيرًا من الإسبان - غير الكهنة - يعترفون بأنهم لا يستطيعون أن ينكروا طيبة أنفسهم وحميد خصالهم ، ولربما كانت هذه الشعوب أسعد أهل الأرض لو أنها عرفت اللّٰه .

لقد غَشَى الإسبان هذه الخراف الوديعة غشيان الذئاب والنُّمور والأسود الوحشية التى لم تجد طعامها أيامًا وأيامًا ، ومنذ أربعين سنة وهم يقطعون أوصالها ويقتلونها ويروعونها ، ومنذ أربعين سنة وهم يفتكون بها ويعذبونها ويبيدونها ، كل يوم فظاعة جديدة غريبة مختلفة لم نسمع ولم نقرأ عن مثلها من قبل ، ولسوف أتحدث عنها لاحقًا ، كانت هذه الفظائع شديدة لم تُبقِ فى الجزيرة الإسبانية اليوم سوى مائتى هندى من أصل ثلاثة ملايين .

إن جزيرة كوبا التى تبلغ مساحتها ما يفصل روما عن « فاللادوليد » خاوية على عروشها لم يبق من أهلها ديار ، أما جزيرتا سان خوان وجامايكا الآمنتان المطمئنتان فجزيرتان سعيدتان كبيرتان ، ولكن أقفرت من أهلها بالحرب ، وهنالك ستون جزيرة مثلهما على تلك الحال ، إن أبشع جزيرة فيها أكثر خصبًا وأبهى جمالاً من حدائق ملك

أشبيلية ، كانت أسلم بلاد اللّه وأكثرها أمنًا وطمأنينة وكان يسكنها نصف مليون من البشر لم يَبقَ منهم اليوم أحد ، فقد أفنى الإسبان أهلها وهم يطردونهم إلى الجزيرة الإسبانية التى أُبيد سكانها ، لقد جاب مركب إسبانى وطاف على هذه الجزر ثلاثة أيام بحثًا عمن لعله نجا من أهلها بعد « الحصاد » ، فلم يعثر على غير أحد عشر ناجيًا ، وهنالك أكثر من ثلاثين جزيرة مجاورة لـ (سان) خوان كلها أقفرت وأفنى أهلها .

أما على اليابسة فإننا على يقين من أن رجالنا الإسبان قد اجتاحوا ونهبوا أراضى كانت عامرة بأهلها الطيبين فصارت اليوم صحراء ، لقد نهبوا أكثر من عشر ممالك أكبر من كل إسبانيا وأراغون والبرتغال مجتمعة ، وتبلغ مساحتها ضعف ما بين إشبيلية والقدس ، أى أكثر من ألفى فرسخ ، وطوال هذه السنوات الأربعين أُبيد أكثر من اثنى عشر مليونًا من الرجال والنساء والأطفال ظلمًا وعدوانًا جراء طغيان المسيحيين وأعمالهم الجهنمية ، هذا رقم مؤكد على الرغم من أننى أعتقد ، مطمئنًا إلى اعتقادى ، أن عدد الضحايا يتجاوز خمسة عشر مليونًا .

إن الذين ذهبوا إلى هناك من أدعياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة ومحوا ذكرها من وجه الأرض ، إما بالاجتياحات الدموية المتوحشة ، وإما باستعباد من تبقى استعبادًا فظًا غليظًا شنيعًا لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدَّواب ، أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها أو يحاول الخلاص من عذاباته كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل ، عدّ من ذلك إلى أنواع منوعة من الجور والطغيان الجهنمى والتخريب .

قتل المسيحيون كل هذه الأنفس البهية وفتكوا كل ذلك الفتك باسم

الدين ليحصلوا على الذهب ويكتنزوا الثروات ، ويصلوا إلى مراكز أكبر من أشخاصهم ، إن جشعهم وتطاول شهواتهم الجامحة أودى بهم إلى احتقار هذه الشعوب المتواضعة الحالمة الودودة ونهب ثروات هذه الأراضى الخصبة البهيجة . (إننى أقول الحقيقة لأننى شاهدتها بأم عينى) . كان المسيحيون ينظرون إلى الهنود الحمر لا كما ينظرون إلى الحيوانات (ويا ليتهم اعتبروهم حيوانات) بل أقل قدرًا من الدواب وأحط شأنًا من الزبل .

هكذا كانت حياة هؤلاء الناس وأرواحهم [فى أعين الإسبان] ، ولهذا مات منهم العدد الغفير قبل أن يعرفوا حلاوة الإيمان ومن غير أن يتذوقوا القربان المقدس ، ثمة حقيقة مؤكدة أجمع عليها الإسبان بطغاتهم ومجرميهم وهى أن الهنود فى كل تلك البلاد لم يمسوا مسيحيًا بسوء ، وكان الهنود فى البداية يظنون أن المسيحيين قد نزلوا عليهم من السماء ، كان ذلك إلى أن عذبهم المسيحيون ونهبوهم وفظعوا بهم ونكبوهم مرارًا وتكرارًا .



عن الجزيرة الإسبانية

كرم الهنود وطغيان الإسبان

أسلفنا أن الجزيرة الإسبانية كانت أول بقعة اجتاحها المسيحيون وابتدأوا منها بالتخريب وحملة الفَتْك الكبيرة بهذه الشعوب ، كانت أول جزيرة عَاثُوا بها وأبادوا سكانها ، فى البَدْء سَبَوا النساء والأطفال ليستخدموهم كما يشاءون ، ثم راحوا يسرقون طعامهم فلم يكتفوا بما كان الهنود يقدمونه لهم عن رضا ونفس طيبة سخية ، كان كل هندى يعطى ما وسعه العطاء برغم شُحّ مورده وضيق ما بين يديه وما ينتجه بجهده المتواضع ، فما كان يكفى ثلاث أُسر هندية ، كل أسرة من عشر أنفس ، ولمدة شهر ، يلتهمه المسيحى أو يفسده فى يوم واحد ، وحين رأى الهنود كل هذا العنف والتفظيع بدأوا يعرفون أن هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء ، وصار بعضهم يخبىء طعامه أو يهرب من هؤلاء البشر القساة ويختفى فى الغابات ، كان المسيحيون يطاردونهم ويختطفون أسياد القرى ، وقد بلغ بهم الطيش والتراذل أن اغتصب قبطان مسيحى امرأة حاكم الجزيرة وامرأة أشهر نبلائها ، آنذاك راح الهنود الحمر يبحثون عن وسائل لطرد المسيحيين ، وحملوا السلاح ، ولكنه كان سلاحًا ضعيفًا غير هجومى ، بل كان أعجز عن المقاومة والدفاع ، لذلك كانت حروبهم أشبه بألعاب الصبيان .

مذابح يعرفها التاريخ :

أما المسيحيون فعاقبوهم بمذابح لم تعرف فى تاريخ الشعوب ، كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا

ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف فى الحظيرة ، وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً بطعنة سكين ، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف ، كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رءوسهم بالصخور ، أو يلقون بهم فى الأنهار ضاحكين ساخرين ، وحين يسقط فى الماء يقولون : « عجبًا إنه يختلج » ، كانوا يُسفدون الطفل وأمه بالسيف [كما تسفّد قطع اللحم بالسفود] ، وينصبون مشانق طويلة ، ينظمونها مجموعة مجموعة ، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقًا ، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء ، وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار : هكذا أحرقوا الهنود الحمر وهم أحياء .

فنون التعذيب عند الإسبان :

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعًا منوعة ، بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعًا ناقصًا لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم ، ثم يقول لهم : « هيا احملوا الرسائل » ، أى : هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات ، أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة ، ثم يربط هؤلاء المساكين بها ، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين .

ولقد شاهدت مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة ، وبما أنهم يصرخون صراخًا شديدًا أزعج مفوض الشرطة الإسبانية الذى كان نائمًا (أعرف اسمه ، بل أعرف أسرته فى قشتالة) فقد وضعوا فى حلوقهم قطعًا من الخشب أخرستهم ، ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم ، رأيت

ذلك بنفسى ، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها ، أما الذين هربوا إلى الغابات وذرى الجبال بعيدًا عن هذه الوحوش البشرية الضارية فقد روض لهم المسيحيون كلابًا سلوقية شرسة لحقت بهم ، وكانت كلما رأت واحدًا منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كما تفترس الخنزير ، وحين كان الهنود يقتلون مسيحيًا دفاعًا عن أنفسهم كان المسيحيون يبيدون مائة منهم لأنهم يعتقدون أن حياة المسيحى بحياة مائة هندى أحمر .



عن الممالك التى كانت فى الجزيرة الإسبانية

كان فى هذه الجزيرة ، قبل إفنائها ، خمس ممالك أساسية يحكمها خمسة ملوك أقوياء يخضع لهم الأسياد .

سرقة الذهب واغتصاب زوجة الملك :

وكان اسم المملكة الأولى « ماغوا » وتعنى مملكة السهل الخصيب ، وهى من أجمل ممالك العالم ، تمتد على ثمانين فرسخًا من بحر الجنوب إلى بحر الشمال ، ويبلغ عرضها خمسة فراسخ فى بعض الأطراف وثمانية فراسخ أو عشرة فى أطراف أخرى ، وتُحيط بها من أطرافها سلاسل الجبال الشاهقة ، إن فيها أكثر من ثلاثين ألف نهر ومسيل ، ومعظم هذه الأنهار غنى بالذهب الثمين ، أما اسم ملكها فهو « غواريونر » ، وقد كان له عدد من الأتباع والأسياد ، بل إن سيدًا واحدًا من هؤلاء كان قادرًا على أن يجند للملك ستة عشر ألف محارب ، كان الملك ليِّن العريكة خلوقًا مسالمًا ، وكان وفيًا لملوك قشتالة ، يأمر فى كل عام واحدًا من رعاياه الأغنياء أن يقدم جلجلاً ممتلئًا بالذهب لملوك قشتالة ، ثم اضطر بعد ذلك إلى جعله نصف جلجل ذلك ؛ لأن الهنود غير بارعين فى استخراج الذهب ، واقترح الملك أن يعوض عن ذلك بأن يزرع الأراضى الممتدة بين « إيزابيلا » و « سان دومينغو » وأن يقدم محاصيلها لملوك قشتالة ، ولكن ذلك لم يرق للحاكم الإسبانى الذى

كان يفضل الذهب على المحاصيل الزراعية ، وبدلاً من شكر الملك بعث بقبطانه المسيحى الفحل إلى الملك فاغتصب امرأته ، ولم يثأر الملك ، بل قرر أن يهرب وحيدًا ويختفى فى الغابات حيث مات بعيدًا عن وطنه ومملكته .

نَهبُ مَمْلكة « مارين » وقتل الهنود :

أما المملكة الثانية فكانت تُمسى « مارين » وقد شيد فيها الإسبان مرفأ ملكيًا ، كانت « مارين » أكبر من مملكة البرتغال ، وكان شعبها آمنًا سعيدًا ، وفى جبالها مناجم غنية بالنحاس والذهب ، أما اسم ملكها فهو « غواكاناغارى » وكان يتبعه عدد من الأسياد الذين أعرف معظمهم ، وحين وصل الأميرال العجوز إلى المملكة استقبله الملك بحفاوة بالغة ، هو وجميع المسيحيين الذين معه ، وقد عاملهم بتسامح ونبل ولياقة لم يعرفوا لها مثيلاً فى بلادهم بل من أهليهم ، ثم حين علم الملك بأن السفينة التى كانت تحمل المئونة قد غرقت ، أَمَدَّهم بكل حاجتهم وميرتهم ، غير أن هذا كله لم ينفع ، فقد أُهين هذا الملك الطيب ونهب ، وتاه فى الغابات ، أما أتباعه فمنهم من قُتل على يد المسيحيين ومنهم من أُتلفت أراضيه ومات من شدة العذاب .

تدمير مَمْلكة « ماغوانا » وقتل نصف سكانها :

اسم المملكة الثالثة « ماغوانا » ، وهى أرض خصبة غنية بقصب السكر ، واسم ملكها « كاونالا » ، وهو ملك سخى بزَّ الملوك الآخرين فيما أعطاه للمسيحيين ، وقدمه من خدمات ، وأحياه لهم من احتفالات ومهرجانات ، وقد أخذه المسيحيون أسيرًا إلى قشتالة ، غير أن السفينة غرقت فى البحر به وبمن عليها من الإسبان المسيحيين .

وحين علم أتباع الملك بذلك تمردوا وحملوا السلاح ، وكان الإسبان أقوى بالطبع ، خاصة وأنهم كانوا يهجمون على أحصنتهم (يُعتبر الحصان أخبث سلاح ضد الهندى غير المعتاد عليه) . هكذا دمر المسيحيون هذه المملكة ونهبوها وأخلوها من نصف سكانها .

شنق « مَلِكة كزاراغوا » وإحراق الناس أحياء :

المملكة الرابعة هى مملكة « كزاراغوا » ، وكانت أهم الممالك وأشبه ببلاط للجزيرة كلها ، وقد كان لأهلها لغة مرهفة وعادات نبيلة ، إذ بلغت التربية فيها مستوى راقيًا حسنًا ، وهم ألطف أهل الجزيرة وأجملهم ، ولهم ملك يدعى « بيهيكو » ، وشقيقة لهذا الملك اسمها « أناكاونا » ، وللملك وشقيقته خدمات جليلة قدماها لملوك قشتالة ، وحين توفى الملك خلفته أخته على العرش ، فعلم حاكم الجزيرة بذلك وجاء إلى بلاطها بصحبة ستين فارسًا وأكثر من ثلاثمائة راجل ، وكان هؤلاء قادرين وحدهم على تخريب الجزيرة والأرض اليابسة ، ولجأ الحاكم إلى الحيلة فأدخل معظم رجال بلاط الملكة إلى منزل من قش وأضرم فيه النار وأحرقهم جميعًا وهم أحياء ، أما الملكة فإنهم شنقوها تكريمًا لخدماتها ، وأما الأطفال فكانوا يضربونهم بالرماح من ظهورهم أو يقعدونهم أرضًا ويقطعون سيقانهم .

شنق « مَلِكة هيغواى » وقتل الرجال والأطفال والنساء :

وكان اسم المملكة الخامسة « هيغواى » ، وتحكمها ملكة عجوز شنقها الإسبان حين جاءوا إليها وأحرقوا حاشية بلاطها وهم أحياء ، ولقد فظعوا فى التعذيب والفتك ، ورأيت ذلك بعينى ، إننى عاجز عن

أن أصف كل ما شاهدت ، فلا الورق ولا الزمان بكافيين لسرد هذه الوحشية كلها ، غير أننى أُريد هنا أن أعترف بثقة مطلقة بأن الهنود لم يكونوا مسئولين عن هذه الحروب ، وإنهم كانوا أكثر طيبة ومسالمة من رهبان الأديرة ، فلم يرتكبوا ذنبًا واحدًا مع المسيحيين ، بل إنهم برغم كل فظاعات المسيحيين بهم لم يعرفوا الحقد أو الضغينة أو الانتقام . ولقد عاشرتهم فلم أعرف فيهم العنف ، بل إن عنفهم ، حين يظهر فيهم أشبه بعنف الأطفال فى الثانية عشرة .

حين انتهت الحروب فى هذه الجزيرة ، وتم إفناء رجالها ، لم يبقَ فيها إلا بعض النساء والأطفال ، حينذاك قرر المسيحيون أن يقتسموهم بحجة أنهم سيهدونهم إلى الدين الكاثوليكى ، بذلك ملك هؤلاء الأجلاف الأفظاظ رقاب هذه الأنفس البريئة ، فكانوا يسوقونهم إلى العمل طوال النهار ويمنعون عنهم الطعام ، بل كانوا يرمون إليهم الأعشاب بحجة أنهم ليسوا بشرًا بل حيوانات ، وشيئًا فشيئًا مات الأطفال ، وماتت النساء فى الحقول والمزارع ، وبذلك أُخليت الجزيرة من أهلها فى غضون سنوات ، وحل محلهم هؤلاء الأفظاظ الغلاظ الذين أصمّ اللّه قلوبهم وعقولهم .



عن جزيرة كوبا

دخول النار أفضل من دخول المسيحية :

زحف الإسبان على جزيرة كوبا العامرة بالبشر فى 1511 م ، وكان فيها زعيم قبلى مرموق يدعى « هاتوى » هرب إليها مع عدد كبير من البشر حين اجتاح الإسبان الجزيرة الإسبانية ، ولما علم بأن الإسبان وصلوا إلى كوبا جمع رعيته وقال لهم : لقد سمعت بأن الإسبان قادمون ، إنكم تعرفون ما قد جرى فى جزيرتنا ، وإنهم قادمون إلى هنا ليفعلوا هنا ما فعلوه هناك ، هل تعلمون لماذا يفعلون ذلك ؟ قال له بعض الهنود البسطاء : إنهم يفعلون ذلك من أجل ربهم الذي يعبدونه ويقدسونه ، إنهم يريدوننا أن نؤمن به ولهذا يقتلوننا ، وكان « هاتوى » يملك سلة صغيرة ممتلئة بالذهب ، فابتسم وقال لهم : هذا هو رب المسيحيين ، إنه رب الذهب ، هيا نرقص له ونرضيه ، فربما سمع دعاءنا وأمر المسيحيين بأن لا يذبحونا ، وصرخوا جميعًا : حسنًا .. حسنًا .. ثم رقص الناس حتى الإنهاك ، بعدها قال « هاتوى » : اسمعونى جيدًا ، سوف أرمى بهذا الذهب فى النهر لأنهم سوف يقتلوننا بسببه ، وكذلك فعل .

وعندما عرف المسيحيون بذلك علقوا مشنقته ، ثم جاءه راهب من أخوة القديس فرانسوا يهديه إلى الإيمان المسيحى قبل موته ، ولم يكن زعيم القبيلة قد سمع عن ذلك من قبل ، وقال له الراهب : إن عليه أن يغتنم هذا الوقت القصير قبل موته ويؤمن ؛ لأن

إيمانه سوف يدخله الجنة ، وإلا إلى النار ، وسأل زعيم القبيلة الراهب : هل هنالك مسيحيون فى الجنة ؟ قال الراهب : معظمهم هناك ، عندها قال الزعيم الهندى من غير تردد : إننى أفضل دخول النار عن أن ألتقى بكم فى الجنة ، أرسِلْنى إلى النار ، هكذا صارت سمعة المسيحيين فى بلاد الهند بفضل ما ارتكبوه من فظائع .

قتل ثلاثة آلاف هندى بالسكين :

مرة جاءنا الهنود لاستقبالنا محملين بالهدايا والخيرات ، وقد أعطونا كثيرًا من السمك والخبز والطعام ، وكل ما يستطيعون تقديمه .

وماذا فعل المسيحيون لشكرهم ؟ استولى الشيطان على قلوبهم فجأة فراحوا يقتلونهم بالسكاكين بلا سبب ولا مبرر ، ولقد قتلوا أمْام عينى أكثر من ثلاثة آلاف إنسان رجالاً وأطفالاً ونساء ، لقد شاهدت وحشية لم يرها قبلى بشر ، ولا خطرت على بال إنسان .

حرق واحد وعشرين زعيمًا من الهنود :

ومرة توجهت مع حاكم المنطقة إلى هافانا ، وقبل وصولنا بأيام بعثت إلى أسياد المنطقة رسلاً أطمئنهم وأضمن لهم أن لن يؤذيهم أحد ، ذلك لأن الأرض كلها زلزلت بما سمعت عن مجازرنا ، وحين وصلنا إلى هافانا استقبلنا زعماء القبائل ، وعددهم واحد وعشرون ، وذُهلت حين شاهدت القبطان يأمر جنوده بالقبض عليهم وحرقهم أحياء ، وقد ذقت الأمرين لإنقاذهم وأفلح مسعاى ، لكن عزيمة القبطان لم تَنْثَنِ فقد أمر بإحراقهم بعدها فأُحرقوا أحياء .

قتل الهنود أنفسهم خوفًا من الإسبان :

وحين أدرك سكان كوبا أن مصيرهم مماثل لمصير الجزر الأخرى وأنهم سوف يقتلون ويستعبدون قرروا الانتحار الجماعى ، كان الآباء يشنقون أنفسهم وأهليهم وأطفالهم قبل وصول الإسبان .

ضابط إسبانى يقتل ثلاثمائة هندى :

وأذكر قصة الضابط الذى منحه الحاكم ثلاثمائة هندى فلم يبقَ منهم بعد ثلاثة أشهر غير ثلاثين ، وأعطاه الحاكم أيضًا عددًا مماثلاً فقتلهم أيضًا ، وكان كلما زيد فى العطاء زيد فى التقتيل إلى أن مات ، ليت الشيطان يأخذ روحه .

وفاة سبعة آلاف طفل فى أربعة أشهر :

وخلال إقامتى فى الجزيرة أربعة أشهر توفى أكثر من سبعة آلاف طفل لأن أهلهم كانوا يصطحبونهم معهم إلى مناجم الذهب ، ولقد رأيت أمورًا أفظع عندما كان الإسبان يصطادون الهنود اللاجئين إلى الغابات والكهوف ، هكذا أبادوا أهالى كوبا عن بكرة أبيهم ، لقد شاهدتها عامرة بالناس ، وأى أَسًا مرٍّ ينتاب المرء عندما يراها بعد ثلاثة أشهر صحراء موحشة .



غـزو اليابسـة

فى عام 1514 م توجه حاكم جبار إلى اليابسة ، كان طاغية فظًا لا يعرف قلبه الشفقة أو الرحمة ، كان أداة حقيقية فى يد الغضب الإلهى[1] ، وكان مصرًا على أن يملأ هذه الأرض بكثيرٍ من الإسبان .

القتل والنهب :

وكان غيره من الإسبان قد سبقوه إلى اليابسة ، فقتلوا ونهبوا ، لكنهم لم يتوغلوا بعيدًا ، أما هذا الحاكم فقد تجاوز فى تعذيبه للهنود كل الذين سبقوه إلى الجزر ، فقد أغار على أكثر أراضى الهنود سعادة ورخاء ، وهى أراضٍ تمتد إلى أكثر من خمسمائة فرسخ وتصل إلى مقاطعة « نيكاراغوا » ، كان فيها أسياد عظام ومدن مهمة وثروات ذهبية هائلة .

قتل أربعة آلاف رجل وامرأة مرة واحدة :

عرفت قبطانًا قام بحملته فى هذه اليابسة فقتل أكثر من أربعة آلاف إنسان ، روى لى الراهب « فرانشيسكو سان رومان » الذى رافق القبطان كل ذلك وقال : إنه شاهدها بعينيه .

قتل النائمين وحرقهم :

وحين كان الإسبان يريدون أن ينهبوا قرية أو يسرقوا ذهبها وخيراتها يصلون إليها بعد منتصف الليل ، وساعتها يقرأون على الهنود المساكين الغارقين فى النوم « فرمان » فتحهم (بالإسبانية التى لا يفهمها كل السكان) ، ويقولون فيه : « يا زعماء قبائل الهنود ،

(1) تعبير كنسى فقط يقصد به سطوة الطاغية .

ويا سكان القرية ، إننا نعلمكم بوجود إلهٍ واحد ، وبابا ، وملك قشتالة سيد هذه الأراضى كلها ، فاخرجوا وأعلنوا الطاعة له وإلا فإننا سنعلن الحرب عليكم ونقتلكم » ، ومع طلوع الفجر كان الإسبان يدخلون على هؤلاء المساكين الأبرياء النيام فيحرقون منازلهم القشية ويحرقون الأطفال والنساء وهم أحياء ، كما يحرقون الرجال قبل أن يستيقظوا ، كانوا يقتلون من يشاءون ، ويعذبون من يقبضون عليه حتى الموت ليدلهم على القرى الأخرى الغنية بالذهب ، وأما من لا يقتلونه فيسمون على جلده شارة الرق بميسم من حديد ، وحين تخمد النيران فى البيوت يسارعون إلى نهب الذهب منها .

ذلك دأب الحاكم ودأب المسيحيين الأشرار الذين أقاموا معه فى الجزيرة من 1514 م حتى 1522 م ، كان ذلك شأن ضباط الملك أيضًا كما هو شأن رئيس المطارنة فى هذه الجزيرة ، فقد كان هو أيضًا يرسل خدمه ليأتوه بحصته من الذهب .

سرقة 400 مليون جرام من الذهب :

لقد سرق الإسبان من هذه المملكة أكثر من 400 مليون جرام من الذهب ، وأعتقد أن هذا أقل من الرقم الحقيقى ، ولم يبعث الإسبان من هذا الذهب المسروق إلى ملك قشتالة إلا النزر القليل ، كذلك قتلوا 900 ألف إنسان فيها ، ثم قضى الحكام الطغاة الذين تعاقبوا عليها إلى عام 1533 م على كل ما تبقى من أهلها .

تعذيب أحد زعماء الهند الغربية وإحراقه بالنار :

ذات مرة جاء زعيم قبيلة هندى إلى الحاكم ، وقدم له طوعًا (وربما عن خوف) حوالى 36 ألف غرام من الذهب ، فلم يطب خاطر

الحاكم الذى أسر فى نفسه قائلاً : إذا كان هذا الهندى يعطينى كل هذه الكمية من الذهب طوعًا فلا شك فى أنه يملك أضعاف أضعافها ، وكان المسكين قد أعطى الحاكم كل ما يملك من الذهب ، لكن الحاكم لم يصدق ، وأمر جنوده بتعذيبه لعله يعطى المزيد ، وبما أن الزعيم الهندى لم يكن يملك فعلاً أكثر مما أعطى فقد استمروا فى تعذيبه ، ثم ربطوه إلى وتد فى الأرض وأشعلوا النار تحت أقدامه ، وظل على هذه الحال من العذاب إلى أن « سال نخاعه على أخمص قدميه » !

ذبح النساء وبَقْر بطونهن :

وذات مرة خرجت فرقة من الجنود للنهب ، ووصلت إلى غابة اختبأ فيها عدد من الهنود خوفًا من وحشية المسيحيين وجرائمهم ، وانقض الجنود عليهم فقتلوا منهم ما استطاعوا ، وسبوا سبعين امرأة ، واحتشد الهنود فى اليوم التالى وطاردوا المسيحيين طلبًا لنسائهم وسباياهم ، وحين أحس المسيحيون أن الهنود قد اقتربوا منهم ذبحوا النساء والسبايا وبقروا بطونهن ، فلم يبقوا على واحدة منهن ، وأُصيب الهنود بالامتعاض والخيبة والتأذى فراحوا يلطمون أنفسهم ويصيحون : يا للأشرار ، يا للمسيحيين الهمج ، لقد قتلتم نساءنا ، قتلتم أطهر كائنات الدنيا ، وقتل النساء عند الهندى أكبر دليل على البهيمية .



عن مقاطعة نيكاراغوا

مذابح لا ترويها إلا الصور :

فى 1522 م أو ربما 1523 م توجه هذا الحاكم الطاغية لاجتياح مقاطعة « نيكاراغوا » السعيدة ، وقد اجتاحها ، من يستطيع أن يتغنى بسعادة هذا الشعب الغفير ووفر صحته وحميد خصاله ؟ لقد كان منظرًا يخلب الألباب ويفتن العيون تلك القرى المرسومة على ثلاثة فراسخ أو أربعة تتخللها الحقول .

كانت الأرض سهلاً يستحيل على سكانها أن يختبئوا فيها ، وكانت أرضًا خصبًا تؤتى ثمرها بسخاء ، ولم يكن الهنود ليطيقوا التخلى عنها ، لذلك صبروا على وحشية المسيحيين واستعبادهم لهم ، فقد كانوا بطبيعتهم مسالمين متواضعين ، وكان هذا الطاغية وصحبه قد ارتكبوا كثيرًا من المذابح والفظائع واسترقوا واستعبدوا الكثيرين مما يصعب على الإنسان وصفه وإحصاؤه ، أما المذابح فترتكب وفقًا لمزاج الطاغية ولأتفه الأسباب ، كان يأمر بذبح الهنود إذا تأخروا فى الرد عليه أو الوصول إلى قصره ، أو إذا لم يجيئوه بالقمح فى الوقت المناسب ، ولم يكن هنالك هندى يستطيع النجاة من أحصنته الغاضبة .

قطع الرقاب بالسيف :

وكان يرسل جنوده فى حملات لنهب القرى الهندية ، ويسمح لهم باسترقاق ما استطاعوا منهم ، وكان هؤلاء يربطون الهنود لكيلا يرفضوا بما أثقلت به ظهورهم ، ولقد شاهدت حملة استرقوا فيها ستة آلاف

هندى من قرية واحدة فلم يصل منهم إلا ستة أحياء ، أما الباقون فقد تساقطوا على الطرق بسبب الجوع أو المرض أو الجراح التى أصابتهم والحمولة التى آذتهم ، وكان الإسبانى حين يرى بعضهم يسقط أرضًا يقطع رأسه بالسيف لكى لا يزعج نفسه بفك الحمولة عن ظهره .

موت ثلاثين ألف طفل وامرأة وشيخ جوعًا :

وذات مرة لم يستطع الهنود بذر القمح الكافى ، فشح الموسم ولم يتوفر الخبز الكافى للمسيحيين ، فنهبوا كل مئونة الهنود ، ومات أكثر من ثلاثين ألفًا من الأطفال والنساء والشيوخ جوعًا ، كان المسيحى يستولى على أرض الهندى ويأكل ثمارها ويستخدم أصحابها ويسترقهم ، أما الطفل الهندى فيصبح عبدًا بمجرد أن يقف على قدميه .

هكذا أبادوا هذه الشعوب ، وما زالوا يبيدون .

تسخير الهنود حتى الموت :

لقد حملوا على ظهورهم الخشب مسافات طويلة ، بل حتى المرافئ ليشيدوا مراكبهم ، وقد مات كثير منهم على الطريق ، لم يتركوا امرأة حبلى أو طفلاً ، كانت الحبلى تسقط من الإعياء وتموت ، وكان المراهقون يُؤمرون بالانطلاق إلى الغابات لجمع العسل والشمع ، وكانت الحيوانات الضارية تفنى معظمهم .

استعباد الهنود وبيعهم :

وانتشرت تجارة الرق فى هذه المقاطعة ، وقد أمر الحاكم الطاغية كل زعيم هندى بأن يؤمن له خمسين هنديًا فى كل شهر لاسترقاقهم ،

وكان جنوده يذهبون إلى هذا الزعيم فى آخر الشهر ، فإذا لم يجدوا العدد الكافى رموا بالزعيم إلى كلابهم ، وقد اضطر هؤلاء إلى تجميع الرقيق من قبائلهم فإذا كان للأسرة أربعة أطفال ضحت باثنين ، وإذا كان لها طفلان ضحت بواحد ، هكذا إلى أن يستكمل العدد المطلوب ، وكانت هذه المخلوقات الشقية تُنقل فى مراكب إلى بلاد « باناما » أو « البيرو » لتُباع هناك ، بذلك غادر « نيكاراغوا » أكثر من 500 ألف هندى كانوا يتذوقون طعم الحرية كما أتذوقه الآن بينما توفى أكثر من 600 ألف داخل الجزيرة ، وذلك مما عانوه .

كل هذا الدمار . . . فى أربعة عشر عامًا ، إننا لا نجد اليوم فى كل بلاد « نيكاراغوا » أكثر من أربعة آلاف أو خمسة آلاف شخص ، وما زال الإسبان يقتلون فيهم .



عن ما يُسمى بإسبانيا الجديدة

الفتك والقتل والإبادة سلاح الإسبان :

اكتشفت هذه البلاد التى صارت تسمى بإسبانيا الجديدة فى عام 1517 م ، ولم يمضِ عام على اكتشافها حتى ابتدأ المسيحيون بقتل سكانها ، وهم يزعمون أنهم جاءوا لإعمارها ، وبين 1518 م و 1542 م وصل العنف والطغيان أوجهما فى بلاد الهند ، لقد نسى المسيحيون اللّه ونسوا الملك ، كما نسوا أنفسهم ، وأحب أن أنبه إلى أن التدمير والتفظيع والقتل والفتك والإبادة فى باقى البلاد الهندية لا يُقارن بما جرى هنا فى إسبانيا الجديدة .

وإننى أسكت عن الكثير ، ولا أذكر إلا اليسير مما جرى بين 1518 م و 1542 م ، أى الوقت الذى أكتب فيه مذكراتى هذه .

حتى هذا اليوم من شهر أيلول / سبتمبر ما أزال أرى بعينى أفظع أعمال العنف ، وهذا ما يؤكد ما ذهبت إليه حين قلت إن العسف والجور والطغيان . . . كل ذلك يتزايد مع الزمن .

تدمير خمس ممالك أكبر من إسبانيا :

بين 18 نيسان / أبريل 1518 م وعام 1530 م (أى فى اثنى عشر عامًا) خرب المسيحيون وأبادوا بسيوفهم الدموية المجرمة أكثر من 450 فرسخًا حول مدينة مكسيكو ، وهى مساحة شهدت خمس ممالك أكبر من إسبانيا وأكثر سعادة وعمرانًا منها .

وكانت هذه الممالك أحفل بالناس من طليطلة وقشتالة وفالادوليد وسرقسطة وبرشلونة مجتمعة ، بل إن هذه المدن جميعًا لم تكن آهلة

بالسكان كما هى حال الممالك الهندية حول مكسيكو ، وفى هذه الأعوام الاثنى عشر قَتَلَ الإسبانُ أكثر من أربعة ملايين من الأهالى نساء وأطفالاً وشبابًا وشيوخًا أو أحرقوهم أحياء ، وأكرر هنا : لقد ظلت هذه الوحشية منتظمة طوال ما يسمونه بفترة « الفتوحات » ، وهى فى الواقع اجتياجات عنيفة شَنّها طغاة أجلاف يدينهم قانون اللّه وقوانين البشر . إننا لا نستطيع أن نقارن هذه الوحشية بكل ما فعله الأتراك من أجل تدمير الكنيسة المسيحية ! إننى لا أتحدث هنا عن الذين يموتون يوميًا فى ظل العبودية الفظة ، أو فى ظل التعذيب والتنكيل ، فليس هنالك لغة أو قدرة أو براعة بشرية تستطيع سرد هذه الوقائع المخيفة التى تجرى فى بلاد الهند يوميًا على أيدى هؤلاء « الزوار » الذين جاءوا إلى هذه البلاد ، هؤلاء الذين يعتبرون عدوانًا خطيرًا على بنى الإنسان .

والواقع أن تفسير بعض هذه الأعمال الوحشية مستحيل مهما بذلتُ له من جهد وصرفتُ له من وقت ، لكننى سوف أتحدث عن ذلك فى المقاطع اللاحقة مقسمًا أننى لا أذكر إلا معشار معشار معشار ما جرى .

ذبح ستة آلاف هندى :

وهأنذا أذكر واحدة من المجازر العديدة ، إنها مجزرة ارتكبت فى مدينة يزيد أهلها على ثلاثين ألفًا ، واسم المدينة « شولولا » .

حين علم الهنود بمجيء الإسبان خرج زعماء المنطقة جميعًا لاستقبالهم وكان معهم الكهنة ورئيس الكهنة ، وقد سار الموكب للقاء المسيحيين تظلله الهيبة ويحيط به الجلال ، ودعا الهنود ضيوفهم

الإسبان لينزلوا فى بيوتهم وقصورهم ، غير أن الإسبان كانوا مصممين على المجزرة التى كانوا يسمونها « عقابًا » لبسط الهيبة وترويع السكان وتخويفهم ، وكانت هذه سياسة الفتح الإسبانى : أوّل ما يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينة هو ارتكاب مجزرة مخيفة ، مجزرة جماعية ترجف منها أوصال هذه النعاج المرهفة .

ونادى الإسبان كل أسياد المدينة ونبلائها ليسجنوهم فورًا ، ومن غير أن يعلم بذلك أحد من الطلقاء ، ثم طلب الإسبان ستة آلاف هندى ليحملوا بضائعهم ، وحين جاءوا سجنوهم كذلك فى باحات المنازل ، إن مشهد هؤلاء الهنود وهم يستعدون لحمل حقائب الإسبان وبضائعهم يثير الشفقة والأسى ، فهم يجيئون عراة ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم ، ويحملون معهم شباكًا صغيرة فيها طعامهم المتواضع ، ثم يقرفصون جميعًا كالخراف الوديعة ، وحين تجمع الهنود أغلق عليهم الإسبان الأبواب وشددوا عليها الحراسة ، ثم استلّوا خناجرهم وبدأوا بذبح هذه النعاج ، فلم ينج منهم إلا القليل ، وبعد يومين أو ثلاثة رأينا بعض الهنود يخرجون أحياء ملطخين بالدم ، وكان هؤلاء الناجون قد اختبأوا تحت القتلى (ونجحوا فى الاختفاء لكثرة القتلى) ، وراح هؤلاء الناجون يسترحمون الإسبان ويستعطفونهم أن لا يقتلوهم . . . سدى ، فالإسبان لا يعرفون الشفقة أو الرحمة ولهذا قطعوهم إربًا إربًا . .

إحراق مائة رجل من زعماء الهنود :

بعد قتل ستة آلاف هندى أمر القبطان بإخراج الأسياد الذين كانوا موثقين بالنير[1] ، وعددهم أكثر من مائة ، ثم أمر جنوده بإحراقهم أحياء .

---

(1) النّير : خشبة تعلق فى الرقبة واليدين .

إحراق المعبد بمن فيه :

لكن ملكهم استطاع أن يفك وثاقه فهرب مع عشرين أو ثلاثين ، وربما أربعين من رجاله ، واختبأوا فى معبدهم الكبير « كوه » الذى يشبه القلعة ، وقاوموا نهارًا كاملاً ، ولكن عبثًا مقاومة الإسبان بهنود عزل من السلاح ، لقد أمر القبطان الإسبانى بإحراق المعبد ومن فيه ، وكنا نسمع صراخ الرجال وهم يحترقون : آه من هؤلاء الأشرار ، ماذا فعلنا لكم ؟ لماذا تقتلوننا ؟ إن زعيمنا الأكبر « مونتيزوما » فى مكسيكو سوف ينتقم منكم ، وقيل لى : إن القبطان كان يغنى عندما كان جنوده يذبحون الهنود ، وينشد :

« ها نيرون ينظر إلى الحريق
المشتعل بين روما وصخرة ترميا
الأطفال والشيوخ يصرخون
وهو لا يشعر بشىء » .

مجزرة فى مدينة تيباكا :

وقام الإسبان بمجزرة أخرى فى مدينة تيباكا ، وهى أكبر من مدينة شولولا ، وعدد سكانها أكثر ، ولم تسلم من فظائعهم الوحشية .

قتل الآلاف فى مكسيكو :

ومن هناك توجهوا إلى مكسيكو فأرسل إليهم ملكها الكبير « مونتيزوما » بألوف الهدايا ، وأمر بإحياء الحفلات على طول الطريق المؤدية إلى مكسيكو ، ثم أوفد إليهم أخاه ليستقبلهم بالترحاب قبل وصولهم إلى مكسيكو بفرسخين ، وكان معه عدد من الأشراف

المحملين بهدايا الذهب والفضة والملابس ، وعندما وصلوا مدخل المدينة جاء « مونتيزوما » لاستقبالهم بنفسه ، تصحبه حاشيته ، ثم اصطحبهم إلى قصره وأنزلهم ضيوفًا عنده ، وقد علمت أن الإسبان انقضوا على الملك فى اليوم نفسه وأوثقوه بسلاسل الحديد ، كان الملك يجهل الحذر .

وحين علم الهنود بذلك قرروا إحياء الحفلات حول القصر إكرامًا لملكهم الموثق بالسلاسل ، فعسى أن تشفع له آلهتهم ، كما أقاموا الرقصات والاحتفالات فى كل أنحاء المدينة ، ولبس الهنود فى هذه المناسبة أجمل ثيابهم وأغلى حُليهم ، واشترك فى ذلك أكثر من ألفى شريف ونبيل : صفوة القوم ، عندها وجه القبطان الإسبانى رجاله إلى مختلف أنحاء المدينة حيث كانت الاحتفالات بحجة أن الجنود يرغبون فى مشاهدتها ، وأمر جنوده بالانقضاض على الهنود فى ساعة معلومة . وبينما كان الهنود يرقصون ويغنون صرخ القبطان : « عليهم يا قديس جاك ، يا قديس جاك عليهم » ! وابتدأ المسيحيون بتمزيق تلك الأجساد اليانعة البَضّة بسيوفهم ، وسفك تلك الدماء الكريمة ، لم يتركوا هنديًا واحدًا على قيد الحياة ، وكذلك فعل باقى الجنود .

مثل هذه الأفعال نشرت الرعب وأشاعت الذهول فى هذه الشعوب البريئة ، وأصابتهم الحسرة والمرارة ، ولسوف تبقى هذه الشعوب تنشد أساها فى أغانيها الوطنية ورقصاتها حتى نهاية العالم ، ولسوف تندب ما أصاب سلفها الشريف النبيل من فجائع .

تعذيب الهنود وحرق الأشراف أحياء :

حين سمع باقى الهنود بهذه الوحشية ثاروا ، على الرغم من أنهم تحملوا سجن ملكهم بكل تسامح ، وكان الملك قد أمرهم بأن لا

يعتدوا على المسيحيين ولا يقاتلوهم ، لكنهم حملوا سلاحهم وانقضوا على الإسبان ، وجرحوا كثيرًا منهم ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى يدافع فيها الهنود عن أنفسهم .. عند ذلك أخرج الإسبان الملك « مونتيزوما » من سجنه وأصعدوه إلى الشرفة وهم يحملون الخناجر ويهددون بذبحه ، وأمر الملك شعبه بإلقاء السلاح وعدم الهجوم على القصر ، أما الهنود الذين ملأهم الغضب والحزن على العدد الهائل من قتلاهم فراحوا يهددون بانتخاب ملك جديد يقود معاركهم .

ومع ذلك فقد اضطر الهنود إلى وقف المعارك أربعة أيام ، لكنهم عادوا فى اليوم الخامس وقاتلوا ببسالة وبطولة مما اضطر الإسبان إلى الفرار من المدينة والنجاة بجلدهم ، وحين علم الهنود بذلك قتلوا الكثير منهم على الجسور المؤدية إلى البحيرة ، وإننى لأشهد بأن دفاع هذه الشعوب كان عادلاً جدًا ومقدسًا جدًا ، إن كل عاقل يقر هذا الدفاع ويدعمه .

وما لبث المسيحيون أن عادوا إلى المدينة مدججين بالسلاح ، وأغاروا عليها وتفننوا فى تعذيب أهلها تعذيبًا ليس له مثيل ، وقتلوا أشرافها أو أحرقوهم أحياء ، وقد نالت مكسيكو القسط الأوفر من الدمار والتعذيب اللذين امتدا عشرين فرسخًا بعيدًا عن مكسيكو ، ثم اجتاح الطاعون مقاطعة « بانوكو » المكتظة بالبشر فلم يكتفِ الإسبان بما فعل الطاعون بل أتبعوه بمذابح مخيفة .

تدمير ثلاث ممالك بمن فيها :

ودمر الإسبان أيضًا مملكة « كوتوتيبيك » و « بيلسينغو » و « كوليما » ، علمًا بأن كل واحدة من هذه الممالك أكبر من

مملكة قشتالة ، إن وصف المجازر التى ارتكبت فى هذه الممالك أمر يفوق طاقتى الإنسانية ، بل يكاد يكون مستحيلاً . . . كان هؤلاء المنحطون الطائشون لا يوحون إلا بالرعب والخشية ، فهم لا يكترثون بحق ، طبيعيًا كان ، أو إسبانيًا ، أو إلهيًا ، إنهم يمتهنون القيم والمعايير ، ولسوف يرون العذاب ومأواهم جهنم بما يرتكبون من سيئات وموبقات تُنسب لملوك قشتالة .

تدمير بلاد الغواتيمالا وناكو وهندوراس بأهلها :

لقد وجه هذا الطاغية قبطانين بيزانه وحشية وجبروتًا إلى ممالك عظيمة مزدهرة وشعوب سعيدة تسكن بلاد « الغواتيمالا » الحافلة بالبشر والتى تقع على بحر الجنوب ، وإلى بلاد « ناكو » ، و « هندوراس » أو « غوامورا » على بحر الشمال ، وكان قلبا هذين القبطانين كقلب الطاغية لا يعرف شفقة أو رحمة .

وكانت المملكتان متجاورتين ، لا تبعد حدودهما مائتان أو ثلاثمائة فرسخ من مكسيكو ، ولقد وجه هذا الطاغية قبطانه الأول برًا ، ووجه الثانى عن طريق البحر ، واصطحب كلاً منهما ، بعدد من الفرسان والمشاة ، وقد تفنن هذان الجباران فى الإجرام والإثم والخراب والظلم والفتك والوحشية ما سيروع القرون الحاضرة والمقبلة ويصيبها بالهول ، وما لا تستطيع الكتب الكبيرة أن تستوعبه (وأخص القبطان الذى توجه إلى غواتيمالا ، لأن الثانى عوجل بالموت) ، إن أحدًا من البشر لن يستطيع أن يحصى كم قتل هذا الوحش ، أو مساحات الأراضي التى أقفرها من البشر ، أما القبطان الذى توجه بحرًا فقد نهب قرى الساحل وطرد أهلها ، وفى مملكة « يوكاتان » الواقعة على طريق

مملكة « ناكو » و « غوامورا » جاء الهنود لاستقباله بالترحاب والهدايا ، لكنه كغيره من الإسبان لم يحفل بهم بل وجه جنوده لتدمير القرى وقتل أهلها ، وقد حدث أن تمرد أحد جنود القبطان وسبقه إلى الأراضى القريبة من غواتيمالا ، فنهبها وأحرق أهلها أحياء ، وقد ارتكب فظائعه على مساحة أكبر من 120 فرسخًا ، ولما لحق به قبطانه لم يرَ إلا الدمار والقتلى ، أما من تبقى من الهنود ونجا فقد امتلأ بالنقمة وهجم على الإسبان ، فنشبت معارك دموية بين الطرفين .

وظل الإسبان يعيثون فسادًا وخرابًا من عام 1524 م حتى 1535 م ويصدرون العبيد إلى إسبانيا بالسفن ، ويتقاضون لقاءهم النبيذ والثياب والأغذية .

قتل أكثر من مليونى هندى :

ولقد مررت بهذه الممالك فى طريق العودة ، وكاد قلبى أن ينفطر لرؤيتها خرابًا أقفر من أهله ، لقد قتل الإسبان خلال الأحد عشر عامًا أكثر من مليونى شخص فى هذه البلاد ، وتركوا أقل من ألف شخص فى مساحة تتجاوز مائة فرسخ مربع ، وإنهم ماضون فى القتل يومًا بعد يوم ، ومستمرون فى الاستعباد .



عن مملكة غواتيمالا

لم يكد القبطان يصل إلى هذه المملكة حتى ارتكب مجزرة كبيرة ، وبرغم ذلك فقد هبَّ أكبر أشراف المملكة لاستقباله والترحاب به ، وجاء على محفة تواكبه الأبواق والطبول فى موكب مهيب ، وجاء معه كثير من أشراف مدينة « التاتلان » عاصمة المملكة ، وأهدى الهنود للإسبان الغالى النفيس ، وأقاموا لهم مأدبة كبيرة ، ونام الإسبان ليلتهم تلك خارج المدينة لأن ذلك أكثر أمانًا .

إحراق الأشراف بغير ذنب :

وفى اليوم التالى نادى القبطان كبير الأشراف وكثيرين غيره فجاءوا جميعًا كالنعاج الوديعة ، وسجنهم القبطان جميعًا ، وأمرهم بإعطائه كل ما يملكونه من ذهب ، وأجابوه أنهم لا يملكون ذهبًا لأن أراضيهم خالية منه ، عندها أمر جنوده بإحراقهم من غير ذنب أو محاكمة .

وحين علم باقى الأشراف بذلك هربوا من القرى ولجأوا إلى الغابات وأمروا أبناء شعبهم أن يخدموا الإسبان كما يخدمون أسيادهم ، وطلبوا إليهم أن لا يعلنوا عن مكان اختبائهم ، وانصاع الشعب لأمر أشرافه ، فلاقوا الإسبان بالترحاب والطاعة ، غير أن القبطان لم يَغْنِهِ من ذلك شىء وطلب إليهم أن يكشفوا مخبأ أشرافهم ، فلما أبوا قتلهم جميعًا ، وكان كلما جاء فوج منهم إليه معلنًا طاعته سألهم عن أشرافهم ، ثم قتلهم .

ومع الزمن حذق الإسبان وبرعوا فى فن القتل والذبح ، وصاروا يفعلون ذلك بطريقة أسرع ووقت أقصر ، وأذكر أن الإسبان دخلوا مرة إلى قرية كبيرة قوية (وكان سكانها واثقين من براءتهم وواثقين من

أنفسهم) فلم يَنْصاعوا لما طلب الإسبان منهم ، فاجتاحها الإسبان وقتلوا من فيها في أقل من ساعتين .

الكلاب المدربة تأكل الهنود :

وحين رأى الهنود أنهم لن يستطيعوا أن يَسْتَعطفوا قلوبًا بهذه الوحشية ، وأنهم إلى الذبح لا مفر ، وأنهم لن يستطيعوا دَحْر الإسبان ، قرروا الانتحار ، كانوا شبه عراة ، عزلاً من السلاح ، ضعاف البنية ، ويستحيل عليهم الوقوف في وجه جيوش متوحشة جهنمية تقاتل فوق الأحصنة وهم مشاة حفاة ، وما لبث الهنود أن اخترعوا طريقة لأذى الإسبان ، كانوا يهيئون حفرًا صغيرة على الطرقات التي يسلكها الإسبان بأحصنتهم ، وكانت هذه الحفر تملأ بالأوتاد المسنونة الحادة لقتل الأحصنة ، كما كانت تُغطى بالعشب للتمويه ، وانطلت الحيلة على الإسبان مرة أو مرتين ، ثم سرعان ما عرفوا كيف يتجنبون هذه الحفر ، وكيف يَنْتقمون بمن كانوا كلما التقطوا هنديًا ألقوا به في هذه الحفر حيًا ، مهما كان عمره أو جنسه ، هكذا كانوا يرمون فيها الحبالى والمرضعات والشيوخ والأطفال ، وكان مشهدًا يبعث على البكاء حين كنا نمر بالقرب من هذه الحفر الممتلئة بالهنود وقد اخترقت الأوتاد أجسادهم ، وكنا نرى الكلاب السلوقية تعيش على لحم هؤلاء المساكين ، لقد ارتكب الإسبان هذه المجازر منذ 1524 م حتى 1531 م ، وأترك للقارئ تقدير عدد القتلى .

توزيع الهنود عبيدًا على الجنود :

وأذكر فظاعة أخرى ارتكبها هذا القبطان من بين ما ارتكبه من فظائع ، كان ذلك في مقاطعة « كوزكاتان » ، حيث توجد اليوم مدينة سان سلفادور تقريبًا ، كانت أرضًا سعيدة تشرف على معظم الساحل الذي يمتد 45 فرسخًا على بحر الجنوب ، ولقد خرج أكثر من ثلاثين

ألف هندى من العاصمة « كوزكاتان » لاستقبال الإسبان ، كانوا يحملون معهم الدجاج والأغذية . وبعد أن أخذ الإسبان الهدايا أمر القبطان بتوزيع الهنود على الجنود عبيدًا ، فكانت حصة كل جندى 150 عبدًا هنديًا ، وبذلك تشتت أسر هؤلاء الهنود الأبرياء بين هذا الجندى الإسبانى وذاك . .

تصدير الهنود عبيدًا :

بعد ذلك طلب القبطان من الأشراف أن يحضروا له ذهبهم ، وكان هذا أول ما يطلبه الإسبان ، فقال لهم الهنود إنهم لا يملكون منه الكثير ، ثم جمعوا لهم عددًا هائلاً من الفئوس النحاسية المطلية بالذهب (وكانت هذه أدواتهم الرئيسية) . . لكن القبطان استعمل محكًا فعرف أن الفئوس من نحاس وأنها مطلية بالذهب طلاء ، لهذا أمر جنوده بتصدير هنود هذا البلد عبيدًا إلى « البيرو » ، وكان يهتز غضبًا ويصرخ : فليذهب هذا البلد إلى الجحيم ، ولنرحل ما دمنا لم نجد ذهبًا ، وقاوم بعض أولئك المساكين ، فشنَّ عليهم الإسبان حربًا ضارية وذبحوهم ثم عادوا إلى « الغواتيمالا » حيث كانوا قد شيدوا لأنفسهم مدينة أنزل اللّه عليها عذاب الطوفان والحريق ومحاها عن بكرة أبيها .

أخذ الأطفال عبيدًا :

وكان الهنود يقدمون أولادهم (الصبيان والبنات) للإسبان الذين ملأوا منهم سفنًا كاملة ، أما من كان يرفض تقديم أولاده فكان يقتل ، ولقد قتل هذا القبطان المجرم هو وأخوه أكثر من أربعة ملايين أو خمسة ملايين نسمة بين عام 1524 م و 1540 م ، وأنهم ما زالوا يقتلون الأحياء الباقين ، ولسوف يستمرون فى القتل .

وإليكم واحدة من فظائع الإسبان .

شَيّ الأطفال وأكل لحوم الهنود :

مرة كان هذا القبطان متوجهًا إلى الحرب بجيش من عشرة آلاف أو عشرين ألفًا ، وكان معه عدد كبير من الهنود الذين ساقهم (عبيدًا) بعد تعذيبهم ، وكان القبطان لا يقدم لرجاله الطعام ، لكنه سمح لهم بأن يأكلوا الهنود الذين معهم أو الذين يلتقطونهم أثناء الغارات على المدن والقرى ، هكذا صار معسكره أشبه بمسلخ يتراكم فيه لحم البشر ، كان الرجال يقتلون الأطفال ويَشْوونهم ، وكانوا يقتلون الإنسان من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين إنها أشهى لحم الإنسان ، وحين عرف سكان المناطق القريبة بهذه الأعمال البهيمية أُصيبوا بالهلع ولم يعرفوا أين يختبئون .

موت الهنود بالأعمال الشاقة :

وقتل هذا الطاغية من الهنود عددًا كبيرًا بطريقة أخرى ، كان يحمل عليهم قطع الخشب الكبيرة ليبنى منها السفن ، كانوا يحملونها مسافة تبلغ 130 فرسخًا ، كما كان يحمل عليهم قطع المدفعية الثقيلة ، فكانوا يموتون على الطرقات ، وكان يملأ السفن بالهنود الذين يموتون جوعًا وعطشًا ، والحق أقول إننى إن وصفت كل فظائع هذا الطاغية لأَرْعَبْت العالم .

لقد شَيّد هذا الطاغية أسطولين أحرق بهما كل هذه الأراضى وكأن السماء كانت تمطر نارًا ، آه ، كم ترك من أيتام ، وكم سرق أطفالاً من أهلهم ، وكم حَرَم رجالاً من زوجاتهم ، ونساء من أزواجهن .

وآه كم ارتكب جنوده الزنا والفسق والدعارة والعنف ، كم استعبد بشرًا ، وكم أهرق دمًا وأسال دموعًا .

عن إسبانيا الجديدة فى بانوكو وجاليسكو

مذابح مملكة « بانوكو » :

لم تقتصر مذابح الإسبان على الممالك التى ذكرناها ، ففى عام 1525 م دخل طاغية جديد إلى مملكة « بانوكو » فقتل الكثير ، وساق عددًا هائلاً من الهنود الحمر إلى جزيرة كوبا لبيعهم ، وقد أحضر من جنود هذا الطاغية ثمانية آلاف هندى ليبنوا سورًا لأرضه ، وقد سقط معظمهم موتى من الجوع ، وكان الجندى يبيع كل مائة هندى بحصان .

تعذيب مَلِك « ميشواكان » وحرقه :

وتوجه هذا الطاغية إلى مملكة « ميشواكان » التى تبعد أربعين فرسخًا عن مكسيكو ، وكانت مثلها سعيدة وحافلة بالسكان ، وخرج ملك المنطقة مرحبًا به ، وقدم له الهدايا النفيسة والحلى ، ولكن الطاغية كان يسمع أن هذا الملك شديد الغنى وأنه يملك كنوزًا من الذهب والفضة ، لهذا أمر بتعذيبه إلى أن يسلم كنوزه ، وجىء بالملك فأوثقت قدماه ، وربطت يداه إلى لوح من السنديان ، ووضعت تحت قدميه محرقة ، وأَوْكل بتعذيبه واحدًا من الزبانية الإسبان ، كان هذا الجلاد يغمس خِرقًا بالزيت المحمى ويرش بها جسد الملك ليشوى لحمه جيدًا ، وكان جلاد إسبانى آخر يقف أمام الملك ، ومعه كلبه السلوقى يهيجه على لحم الملك ويهيجه على التهامه ، هكذا عذبوه إلى أن أنقذه أحد الرهبان ، لكن المسكين توفى من حروقه .

هجوم بالليل من أجل الذهب :

واكتشف هذا الطاغية أن الهنود يُخَبِّئون أصنامهم خوفًا من الإسبان الذين كانوا يسرقونها ظنًا منهم بأنها مصنوعة من الذهب ، وكانوا يخفونها لأنهم لا يؤمنون بإله الإسبان ، وأغار الطاغية عليهم ذات ليلة فنهب أصنامهم بعد أن عذبهم أشد العذاب ، وحين اكتشف أنها ليست من ذهب ، أجبر أشراف القبائل على شرائها بما يملكونه من ذهب ، وقَبِل الأشراف ذلك لأنهم كانوا يعبدون هذه الأصنام ويقدسونها ، تلك هى أفعال الإسبان وطريقتهم فى عبادة الرب .

اغتصاب النساء والأطفال :

ودخل هذا الطاغية إلى مقاطعة « جاليسكو » التى كانت تعج بأهلها كما تعج خلية النحل ، وتمتد قراها على أكثر من سبعة فراسخ ، وحين علم الهنود بمقدم الإسبان خرجوا إليهم مرحبين محملين بالهدايا النفيسة والذهب ، وأقاموا للإسبان الاحتفالات ، وهنا فعل الطاغية ما فعله فى الممالك الأخرى ، لقد أخضع الهنود للتعذيب ليحصل على ما يعتبره إلهًا له ، أعنى الذهب ، وارتكب الإسبان هنا أيضًا ما ارتكبوه فى الممالك الأخرى من قتل وذبح واغتصاب ، وكان جنود هذا الطاغية يغتصبون النساء ويجبرونهن على رمى أطفالهن ، وأذكر أن مسيحيًا شريرًا أراد اغتصاب صبية أمام أمها ، وحين رفضت الاستسلام له قطع يدى الأم وطعن الصبية بالخنجر .

قطع ألسنة الهنود وإطعامها للكلاب :

وساق الطاغية أكثر من خمسة آلاف هندى رجالاً ونساء وأطفالاً ليبيعهم فى أسواق العبيد ، وكان فيهم الرضع أيضًا ، وأقدم رجاله

على ارتكاب الفظائع والأعمال الوحشية كغيرهم من المسيحيين الإسبان ، فكانوا يقطعون ألسنة الهنود ويطعمونها إلى الكلاب .

إحراق 800 قرية :

وقيل لى : إن هذا الطاغية قد أحرق 800 قرية فى « جاليسكو » ، فهرب من هرب واختفى فى المغارات والكهوف ، وقد حاول بعضهم التحصن ببعض الصخور ولكن الإسبان قتلوهم لأنهم - كالعادة - كانوا مدججين بالسلاح .

هكذا اكتشف المسيحيون الإسبان بلاد الهنود وهكذا فتحوها .

وإنه ليحق للهنود ، باسم كل الحقوق والشرائع والقوانين الطبيعية والسماوية البشرية أن يقطعوا الإسبان تقطيعًا ، لو ملكوا السلاح الكافى والقوة اللازمة .

كان الإسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن اللّه أرسلهم لفتح هذه البلاد التى كانت آمنة مطمئنة ، وإن اللّه هو الذى نصرهم على هذه الأمم ، وكانوا يحمدون اللّه فى صلواتهم ويشكرونه لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان ، إنهم يفعلون ذلك كما كان الطغاة اللصوص الذين قال عنهم النبى زكريا : « مبارك هذا الرب ، لقد صرنا أغنياء » .



عن مملكة « يوكاتان »

تعيين الطغاة حكامًا :

بفضل الرياء والكذب الذى كان يبديهما لملك قشتالة فقد تم تعيين طاغية إسبانى حاكمًا على مملكة يوكاتان ، وكانت هذه المملكة أغنى بالثمار والفواكه والأغذية من مملكة مكسيكو[1] ، كذلك كانت أغنى بالعسل والشمع من كل بلاد الهند الأخرى ، وكان محيطها حوالى ثلاثمائة فرسخ .

أما أهلها فكانوا لطافًا ظرافًا لا يعرفون الشر والإثم ، وكانوا أصحاب حكمة وأدب جمٌ ، كان شعبًا يستأهل أن يعرف اللّٰه ويعبده ، وكان فى وسع الإسبان أن يشيدوا فى هذه البلاد مدنًا عظيمة ، وأن يعيشوا مع هذا الشعب كأنهم فى جنة أرضية ، غير أنهم لم يكونوا يستأهلون ذلك بسبب جشعهم وذنوبهم العظيمة وتوحش طبائعهم .

بيع كل خمسين صبية هندية بزجاجة زيت :

وأقدم هذا الطاغية على شنِّ الحروب الضارية على هذه الشعوب البريئة الطيبة التى لا تؤذى ولا تعتدى على أحد ، كان معه ثلاثمائة جندى ، وبما أن الأرض هنا لم تكن غنية بالذهب كما هى الحال فى المناطق الأخرى فإن هذا الطاغية استخرج الذهب من أجساد هؤلاء

---

(1) تقول بعثة « روى فرايتس » التى أعادت اكتشاف المنطقة فى عام 1986 إنها اكتشفت بالقرب من يوكاتان 112 موقعًا من حضارة المايا ، يدل بعضها على نظام رى متطور ، مما يجعلك تتأكد من أن هذه المنطقة كانت عامرة بملايين البشر ، ويقول فرايتس : إن المنطقة كانت تشهد زراعة متطورة ، أما بيتر هاريسون (عالم الآثار من جامعة نيرمكسيكو) فقال : إن عدد سكان يوكاتان كان أكثر من 15 مليونًا ، وهذا ما يؤكد على أن تقديرات « لاس كازاس » كانت متواضعة إذا قارناها بالواقع .

المساكين وأرواحهم التى ضحى المسيح من أجلها ، فمن لم يمت بسيفه مات باستعباده ، كان يقايض بهم ، فيبيع منهم العشرات لقاء شىء من الخَلّ ، أو لحم الخنزير ، أو ملابس ، أو أحصنة ، أو ما يحتاجه هو ورجاله ، وكان يقدم خمسين صبية هندية مقابل قِنّينة زيت أو نبيذ ، وكان سعر الفتيان مماثلاً لسعر الفتيات ، ولقد رأيته يبيع ابن أمير هندى بقطعة من الجبنة ، ومائة هندى مقابل حصان ، لقد مارس هذا الطاغية وحشيته طوال سبع سنين ، فقتل وأفقر واجتاح من غير شفقة أو رحمة .

تمزيق الكلاب الوحشية أجساد الهنود :

ولن يصدق أحد كل ما جرى من وحشية وجور فى « يوكاتان » ، وإننى لا أذكر هنا إلا النزر من الحوادث ، كان المسيحيون المجرمون يطاردون الهنود بكلابهم الوحشية ، لا فرق بين رجل أو امرأة أو طفل ، كانت هنالك هندية مريضة سمعت نباح الكلاب الوحشية وأدركت أنها لن تَنْجُو من هذه الكلاب التى ستلتهمها هى ورضيعها ، فشنقت نفسها وربطت رضيعها بأحد أقدامها ، غير أن الكلاب كانت أسرع منها ، فما لبثت أن أدركتها ومزقت رضيعها ، وقد توصل راهب إلى تعميده قبل أن يلفظ الروح !

التمثيل بالأطفال :

وقَبْل أن يغادر الإسبان هذه المملكة سأل أحدهم طفلاً (ابن زعيم قرية) أن يأتى معه لمطاردة الهنود ، ورفض الطفل ، فقال له الإسبانى هيا معى وإلا فإننى سوف أقطع أذنيك ، وظل الطفل يرفض ، عندها استل الإسبانى خنجره وقطع أُذنيه واحدة بعد الأخرى ، وبما أن

الصبى ظل مصرًا على أن يبقى فى قريته فقد جدع له الإسبانى أيضًا أنفه ، وهو يضحك كأنه يقص له شعرة من رأسه ، وقد تبجح هذا الإسبانى أمام أحد الرهبان بكل وقاحة وقال : إنه حبّل عددًا كبيرًا من النساء ليبيع أطفالهنّ ويصنع بذلك ثروة .

قطع أطراف الأطفال لإطعام الكلاب :

وذات يوم خرج إسبانى لصيد الغزلان والأرانب ، ومعه كلابه السلوقية لكنه لم يصطد شيئًا ، وبدا له أن كلابه جائعة فسرق طفلاً من أمه فقطع أطرافه وأعطى كل كلب حصته ، وحين التهمت الكلاب تلك القطع رمى لها بالجسد الصغير لكى تلتهمه ، ذلك هو بطش المسيحيين فى تلك المناطق وتلك فظائعهم ، لقد قَسَتْ قلوبهم فعاملوا الهنود الذين خلقهم اللَّه على صورته ، وكفَّر عن خطاياهم بدمه[1] ، ولسوف أروى ما هو أفظع من ذلك .

عبادة الأصنام وترك المسيحية :

ولن أتكلم عن كل الأعمال الوحشية التى ارتكبها أدعياء المسيحية ، لأن العقل لا يستطيع تصورها ، لكننى أُريد أن أنهى حديثى بما يلى :

حين رحل الطغاة من هذه المملكة متوجهين إلى بلاد البيرو الغنية بالثروات المعدنية ، توجه الأب « جاكوب » مع أربعة من رهبانية القديس « فرانسوا » إلى « يوكاتان » ، من أجل تهدئة روع هذه الشعوب والقيام بحملة تبشيرية تهديهم إلى المسيحية ، أو تهدى من تبقى منهم بعد المجازر التى دامت سبعة أعوام ، وأظن أن هؤلاء

---

(1) هكذا تقول التوراة : إن اللّه خلق الإنسان على صورته الجسدية ، وكذلك تزعم النصرانية التاريخية : إن المسيح قد صُلب ليفدى الناس من خطاياهم .

الرهبان قد وصلوا فى عام 1534 م ، وكانوا قد بعثوا ببعض الهنود رسلاً لهم ليسألوا الأهالى عما إذا كانوا يقبلون بقدوم الرهبان إلى أراضيهم ، واجتمع الهنود مرارًا ، وجمعوا المعلومات حول نوايا هؤلاء الذين يقول بعضهم إنهم « أخوة » ، وبعضهم أنهم « آباء » ، وحاولوا أن يعرفوا ما يختلف به هؤلاء الرهبان عن بقية المسيحيين الإسبان ، وقرروا أخيرًا أن يستقبلوهم ، شرط أن يجيئوا وليس معهم إسبانى واحد ، وفعلاً فقد مضى هؤلاء الرهبان وحدهم إلى « يوكاتان » ، وبشروا بالإنجيل ، وبالنوايا المقدسة لملوك إسبانيا تجاه الهنود ، ولقد أعجب هؤلاء بهذه العقيدة ، وفرحوا بحديث الرهبان عن ملوك قشتالة ، (ذلك لأن المسيحيين الإسبان لم يبشروا طوال الأعوام السبعة) ، وبعد مرور (40) يومًا على تبشير الرهبان أحضر الهنود أصنامهم وسلموها للرهبان ليحرقوها ، ثم جاءوا بأطفالهم الذين يحبونهم أكبر من بؤبؤ[1] أعينهم من أجل أن يهديهم الرهبان إلى المسيحية ويعلموهم ، وقاموا بتشييد الكنائس والمعابد ، ثم دعوا الرهبان إلى التبشير فى مقاطعة أخرى ، وحصل ما لم يحصل من قبل ، على الرغم من أن الإسبان يكذبون ذلك وينكرونه .

وكان الرهبان ممتلئين بالفرحة والأمل لأن جميع السكان قد آمنوا بالمسيح ، لكن أمرًا فظيعًا قد حصل فجأة ، إذ جاء إلى المنطقة ثلاثون إسبانيًا طاغيًا يحملون معهم الأصنام التى نهبوها من المقاطعات الأخرى ، ونادى زعيمهم رئيس القبيلة الهندية وأمره أن يأخذ هذه الأصنام وأن يوزعها فيقايض كل صنم بهندى أو هندية ليصيروا عبيدًا ، وهدده أنه سيعلن عليه الحرب المميتة إذا تمرد ، وأذعن رئيس

(1) البؤبؤ : إنسان العين ، ويقال : هو أعز علىّ من بؤبؤ عينى .

القبيلة ، فوزع الأصنام على الأهالى وأمر أتباعه بعبادتها ، وأن يقدم كل رب أسرة فردًا منها لقاء الصنم ، وأطاع الهنود فكانوا يقدمون طفلاً من أطفالهم مقابل الصنم ، وشاركوا بذلك فى هذه التجارة النجسة ، وكان أحد هؤلاء اللصوص الإسبان مريضًا على حافة قبره ، وكان يضع أكوامًا من هذه الأصنام تحت سريره ، وقد طلب من خادمته الهندية أن لا تقبل بمقايضة الصنم بدجاج لأنها أصنام جيدة ثمن كل واحد منها عبد ، على الأقل .

فليتأمل المرء فى جدوى مجىء الإسبان إلى بلاد الهند ، وهل عادت بالفائدة على الإسبان ، وليتأمل هذه النماذج المسيحية التى جاءت وكيف عبدت ربها وزرعت بذرة الإيمان فى قلوب هذه الشعوب ، ليتأمل المرء ما إذا كانت جريمة الإسبان أخفّ من جريمة الذى صَنَع عِجْلين من ذهب ليعبدهما الشعب[1] ، وليتأمل ما إذا كانت جريمة الإسبان مماثلة لجريمة يهوذا[2] ، تلك هى أعمال الإسبان فى الهند وتلك هى صنائعهم ، أولئك الذين يركضون وراء الذهب ، ويتعطشون له ، أولئك الذين باعوا المسيح وأنكروه وما زالوا يبيعونه وينكرونه .

وحين وجد الهنود أن ما وعدهم به الرهبان ليس إلا كذبًا ، وحين وجدوا أن الإسبان أنفسهم يبيعونهم الأصنام ويحضرونها من بلاد أخرى ، بينما سلموا أصنامهم بأنفسهم إلى الرهبان ليحرقوها ويعبدوا إلهًا واحدًا ، حين رأى الهنود كل ذلك بأعينهم ثاروا جميعًا على الرهبان ، وجاء زعماؤهم إليهم وقالوا لهم : لماذا خدعتمونا وأكدتم

---

(1) الشعب بالمعنى المسيحى اللاهوتى لا يعنى إلا اليهود .

(2) يهوذا ، هو الذى دل الرومان على المسيح وسبب تلك النهاية التى تقول بها النصرانية التاريخية .

لنا أن المسيحيين لن يدخلوا بلادنا بعد اليوم ؟ لماذا أحرقتم آلهتنا ثم جاء مسيحيوكم إلينا ليبيعونا هذه الآلهة التى أحضروها من بلاد هندية أخرى ؟ هل تنكرون آلهتنا وتؤمنون بآلهة البلاد الأخرى ؟

وحاول الرهبان أن يهدئوا من روع زعماء الهنود ، لكنهم لم يستطيعوا الإجابة على أسئلتهم ، ثم ذهبوا إلى زعماء الإسبان الذين أحضروا الأصنام وباعوها وأخبروهم بالأضرار التى ألحقوها بالمسيحية ، فلم يصغ الإسبان إلى كلام الرهبان ، أمام كل ذلك قرر الهنود قتل الرهبان لكن هؤلاء هربوا تحت جنح الليل ، ثم عادوا بعد أن هدأت ثائرة الهنود ، وأخبروهم أنهم غير مسئولين عن مجىء الإسبان ، لكن الإسبان ظلوا هناك يعيثون فسادًا وآثامًا برغم استعطاف الرهبان لهم ، ولم يستطع الرهبان متابعة تبشيرهم بين الهنود بسبب جرائم الإسبان ، ولذلك قرروا مغادرة « يوكاتان » نهائيًا قبل أن يثور عليهم الهنود من جديد ، بذلك تخلوا عن هذه المملكة وتركوها من غير نور المسيحية ، وهكذا ظلت شعوبها فى جهلها وبؤسها ، وضنّ الرهبان على الهنود بنعمة « البشارة » وحرموهم من معرفة اللّٰه ، تلك المعرفة التى كانوا يتعطشون إليها ، كأنهم كفوا بذلك عن سقاية زرع كانوا قد بذروه حديثًا ، كل ذلك جراء شرور الإسبان وآثامهم .



عن خراج « سانتا مرتا »

السرقة والنهب والاغتصاب والإفساد :

كانت أراضى « سانتا مرتا » غنية بالذهب ، وكان أهلها الهنود بارعين فى استخراجه ، من أجل ذلك لم يتوقف الإسبان الطغاة عن الإغارة على هذه المناطق بسفنهم لنهبها وسرقة أهلها واغتصاب ما يمتلكون من ذهب ، كانوا يعودون إلى سفنهم سريعًا .

ولقد فعلوا ذلك منذ عام 1499 م حتى عام 1542 م ، وذبحوا مئات الآلاف من شعوبها ، وفى 1523 م قرر بعض هؤلاء الطغاة أن يسكنوا فى هذه المنطقة ، وبما أن الأراضى غنية كما أسلفت فقد تعَاور عليها الطغاة ، وكانت كلما دخلت أمة لعنت أختها ، وفاقتها فى ارتكاب الفظائع .

فى عام 1529 م جاء طاغية أسوأ من أسلافه ، لم يكن يعرف الخوف من اللّه ، أو الرأفة بالعباد ، لقد نهب كنوزًا هائلة ، ثم مات قتلاً على يد طاغية آخر استولى على كنوزه ، وتوغل الطاغية الجديد ورجاله فى البلاد ، واجتاح وقتل وعذب حتى جمع أكثر ما استطاع تجميعه من الذهب ، وفى ذلك العام أخلى منطقة تزيد مساحتها على 400 فرسخ من أهلها .

وواللّه لو أننى اضطررت إلى أن أصف وأفصِّل فى وصفى آثام الإسبان ومذابحهم وعسفهم وخطاياهم وكفرهم فى هذه المملكة وحدها ، وإبادتهم هذه الشعوب الآمنة البريئة لكتبت مجلدات كبيرة جدًّا ، **لكننى أكتفى بالاستشهاد من رسالة طويلة وجهها مطران « سانتا مرتا » إلى مولانا ملك قشتالة بتاريخ 20 آيار / مايو 1541 م :**

« يا قيصرنا المقدس ، إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذه الأراضى هى أن ينتزعها جلالتكم من سلطة الآباء المشوهين ، وأن يهبها زوجًا يعاشرها بإحسان تستأهله وتستحقه ، إن ذلك يجب أن يتم بسرعة ، وإلا فإنها ستُباد عن بكرة أبيها ، لأن الإسبان يستنزفونها ويستهلكونها بضراوة . . إلخ » .

ويقول المطران فى مكان آخر من الرسالة :

« لسوف يرى جلالتكم رأى العين أن من يحكمون هنا يستحقون انتزاع السلطة منهم لكى ترتاح البلاد من آلامها ، أما إذا طال الأمر فإن داءها سيُصبح عضالاً ، لسوف يرى جلالتكم رأى العين أن الشياطين هى التى تحكم هنا وليس المسيحيون ، إن الخارجين على قانون اللّه والملك هم الذين يمثلونكم هنا ، والحق أقول يا قيصرنا أن أكبر عائق للسلام مع الهنود وأمام معرفتهم ديننا هو وحشية المسيحيين وقسوتهم على هؤلاء المسالمين ، لقد صار الهنود يجمحون ويجنون كلما ذكرت أمامهم كلمة « المسيحى » ، وصاروا ينادوننا باسم « Yares » وهى كلمة من لغتهم تعنى « الشياطين » ، ولا شك فى أنهم على حق ، لأن الأعمال التى يرتكبها المسيحيون ليست بأعمال مسيحيين ولا أفعال بشر وهبهم اللّه العقل ، إنها فعل الشياطين ، وقد أدى ذلك إلى أن الهنود الذين أوذوا فى قلوبهم وأجسادهم كل هذا الأذى ظنوا أن سبب ذلك هو الدين المسيحى والإله المسيحى والملك المسيحى ، وقد صار إقناعهم بغير ذلك كمن يريد أن يفرغ البحر من مائه ، بل صارت مناسبةً يسخرون فيها من المسيح ومن دينه ، إن الهنود المحاربين حين يرون ما حلَّ بالهنود المستسلمين يفضلون الانتحار على الموت بين يدى الإسبان ، وإننى أعرف ذلك عن تجربة يا قيصرنا الغالب أبدًا » .

ويضيف مطران « سانتا مرتا » فى مكان آخر قائلًا :

« إن لجلالتكم هنا خدمًا أكثر مما تتخيلون وتتصورون ، فليس هناك جندى واحد من الموجودين هنا لا يقول علنًا إنه إنما ينهب ويخرب من أجل خدمة جلالتكم ، وحين يسرق الذهب يزعم أن بعضًا منه لجلالتكم ، لكل ذلك يا صاحب الجلالة يا قيصرنا المسيحى لا بد من إفهام هؤلاء الخدم ببعض العقوبات الصارمة أنكم لا تكونون مخدومين إذا لم يخدم اللّه » .

إن رسالة مطران سانتا مرتا تظهر بوضوح ما يجرى فى هذه المناطق التعيسة وضد هذه الشعوب البريئة ، إن المطران يطلق اسم المحاربين على أولئك الهنود الذين فروا إلى الغابات هربًا من المذابح التى نظمها الإسبان ، ويطلق اسم المسالمين على أولئك الذين نجوا من المذابح الكثيرة واستسلموا لرق الإسبان الجائر الظالم ، حتى هؤلاء يموتون قتلاً بعد حياة العبودية ، لقد استنزف الإسبان هنود هذه المنطقة بتحميلهم الأثقال على كواهلهم فى الجبال الوعرة ، وحين يسقط هندى خائرًا من شدة الإرهاق يكسر الإسبانى أسنانه بمقبض سيفه ، فينهض المسكين وهو يتلوى ألمًا ، ويصيح : اقتلنى حالاً لأنتهى من عذابكم أيها الشياطين ، يقول ذلك ، ويضع يديه على قلبه ، ويلفظ الروح .

وآه لو كنت أستطيع أن أعرض عليكم معشار معشار المصائب والكوارث التى واجهها هؤلاء الأبرياء على يد الإسبان المسيحيين ، ولعل اللّه هو الذى يُفهم من سلمت عقولهم ومن يستطيعون الإنقاذ .



عن « ساحل اللؤلؤ »
و « باريا » و « جزيرة ترينيداد »

دمار البلاد وبيع أهلها عبيدًا :

ارتكب الإسبان فتكًا هائلاً ودمارًا عظيمًا فى المنطقة الممتدة بين ساحل « باريا » وخليج « فنزويلا » ، أى على مائتى فرسخ تقريبًا . وقد نهبوا هذه المنطقة وباعوا سكانها عبيدًا للخارج ، كانوا يأخذونهم بالحيلة ، فقد كان الهنود يستقبلون الإسبان بترحاب كأنهم من أهلهم أو أولادهم ، ويعطونهم ما يستطيعون ويخدمونهم على أفضل وجه ، والحق أنه ليصعب علىَّ أن أروى ما ارتكبه الإسبان على هذا الساحل من ظلم وإذلال وجور ، وذلك منذ عام 1510 م حتى اليوم ، إننى سوف أتكلم عن مثلين أو ثلاثة أمثلة ، مما ارتكبه الإسبان هناك من فظاعات تستحق عذاب جهنم وبئس المصير .

كونوا عبيدًا أو موتوا حرقًا :

إن جزيرة ترينيداد[1] أكبر من صقلية ، وهى جزيرة كانت سعيدة هانئة مطمئنة ، إنها تلتقى باليابسة عند منطقة باريا ، وقد كان أهلها من أسعد سكان بلاد الهند فى 1516 م توجَّه إليها لص إسبانى بصحبة ستين لصًا من الشاطرين ، وقالوا للهنود : إنهم جاءوا إلى الجزيرة ليسكنوها ويعيشوا مع أهلها ، واستقبلهم الهنود كعادتهم كأنهم أولادهم من لحمهم ودمهم ، وخدموهم بكثير من العطف والسعادة ، كانوا يأتونهم يوميًا

(1) سرعان ما كان الإسبان يطلقون على هذه المناطق أسماء قديسيهم ، وترينيداد تعنى : « الثالوث المقدس » ، أما الاسم الأصلى للجزيرة فقد ابتلعه الثالوث .

بطعام أكثر مما يحتاجون إليه ، كان ذلك موقف الهنود فى العالم الجديد [القارة الأمريكية] فقد كانوا يعطونهم بسخاء وكرم ، وقد شيد الهنود لهؤلاء منزلاً كبيرًا من خشب زعموا أنهم يريدون أن يسكنوا فيه ، وكانت تلك وسيلتهم إلى ما كانوا يريدون ، وإلى ما فعلوه بعد ذلك ، فما أن وضع الهنود القش فوق العوارض وغطوها جيدًا (لكى لا يرى من فى الداخل من فى الخارج) هرع الإسبان وطلبوا إلى كثيرٍ من الهنود أن يدخلوا بحجة الإسراع فى إنهاء المنزل ، ثم توزع الإسبان داخل المنزل وخارجه ، وكانوا مسلحين مستعدين للانقضاض على كل هندى تسول له نفسه بالخروج ، أما الذين كانوا فى الداخل من الإسبان فقد سلوا سيوفهم وهددوا الهنود العراة بقتلهم إذا تحركوا ثم أوثقوهم ، وحين حاول بعضهم الهرب لقى مصرعه وتمزق إربًا إربًا ، ثم هَرَع بعض هنود القرية لما علموا بالأمر والتجأوا إلى منزل كبير فى القرية ، حاملين معهم أقواسهم ونبالهم للدفاع عن أنفسهم ، لكن الإسبان طوقوا المنزل وأشعلوا فيه النار ، كان فيه مائة أو مائتان ، وقد أحرقهم الإسبان أحياء ، أما عن الهنود الموثقين فى المنزل فقد ساقوهم إلى سفينتهم وأبحروا بهم إلى سان خوان حيث باعوا نصفهم عبيدًا ، ثم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باعوا النصف الثانى ، وكان عددهم قرابة المائتين ، وحين لُمت القبطان فى جزيرة خوان على ما فعله أجابنى : يا سيدى ، إن من أرسلنى إلى هناك أمرونى أن آتى بالهنود سلمًا أو حربًا ، واعترف لى هذا الطاغية أنه لم يعرف فى حياته أمه أو أباه ، وإن الهنود فى جزيرة ترينيداد كانوا بمثابة الأم والأب ، لقد اعترف بذلك ، ولن يغفر الله له خطاياه ، هكذا استعبد الإسبان الكثير من هنود هذه الجزيرة .

بيع الملك وحاشيته عبيدًا :

ومرةً ، قررنا نحن آباء « رهبانية القديس دومينيك » أن نبشر فى هذه الشعوب المفتقرة إلى نور العقيدة المسيحية ، وتوجهنا إليها لننقذ أرواحها ، وأرسلنا واحدًا من رهبانيتنا ليكتشف البلد قبلنا ويلتقى بسكانها ، ويبحث عن أماكن مناسبة لتشييد الأديرة فيها ، وكان رجل لاهوت شهيرًا ويصحبه راهب آخر ، وحين وصولهما استقبلهما الهنود كأنهما ملائكة من السماء وأَصْغَوا إلى تبشيرهما بكثير من الود واليقظة ، كانا يبشران بالرموز ؛ لأن الهنود لا يفهمون لغتنا ، وبعد أن غادر المركب الذى حمل الراهبين إلى الجزيرة أرسى مركب آخر وترجل منه إسبان مستعدون للقتل والذبح ، ثم استدعوا شريف الجزيرة الهندى الذى كان قد اعتنق المسيحية وصار اسمه « دون ألفونسو » بفضل الراهبين ، ولا بد من القول أن الهنود يصرون على تبديل أسمائهم إلى أسماء مسيحية عندما يعتنقون الدين المسيحى .

وإذن ، فبمجرد أن وصل هؤلاء الإسبان استدعوا دون ألفونسو وقالوا له : إنهم يريدون أن يحتفلوا به هو وامرأته وحاشيته على مركبهم ، وصعد الشريف [دون ألفونسو] مع امرأته وحاشيته (كانوا 27 هنديًا) إلى المركب الذى سرعان ما أبحر بهم إلى الجزيرة الإسبانية حيث باع الإسبان الشريف الهندى ومن معه عبيدًا ، ولما علم أهالى « ترينيداد » بما جرى لزعيمهم جنَّ جنونهم وأرادوا قتل الراهبين ، وخاف الراهبان على حياتهما ، وخافا أن لا تسمع هذه الشعوب بكلام الله أبدًا إذا قتلا ، فحاولا تهدئة خواطر الهنود وتسكين روعهم ، وقالا لهم : إنهما سيكتبان إلى الجزيرة الإسبانية ليعود زعيمهم وحاشيته ، وقد كتبا أول مرة وثانى مرة وثالث مرة ، واحتجا ، وطالبا

عبثًا ، فقد كان الإسبان قد وزعوا الهنود بينهم عبيدًا ، ولم يكن من الهنود بعد طول الانتظار إلا أن قتلوا الراهبين ظنًا منهم بأنهما مسئولان عما جرى ، هكذا انتقم الهنود من الأسبان ، عن حق بقتل الراهبين ، لم يدرك الهنود ، وما زالوا غير مدركين ما بين رجال الدين وبين الإسبان الطغاة اللصوص من فرق ، لقد مات هذان الراهبان بأيدى الهنود وراحوا ضحية الظلم الإسبانى الفظ ، إنهما شهيدان حقيقيان ، ولا شك أنهما الآن إلى جوار ربهما فى جنته السعيدة ، لقد جاءا إلى هذه البلاد من أجل التبشير ونشر الإيمان المقدس ، ومن أجل تخليص هذه الأرواح ، ولقد تجشما المشقات وتحملا العذاب والآلام وأخطار الموت باسم المسيح .

بيع الهنود عبيدًا :

ومرة أخرى قتل الهنود راهبين آخرين من رهبانية القديس « دومينيك » وراهبًا من رهبانية « الفرنسيسكان » ، وكنتُ شاهدًا على موتهم ، ونجوت بأعجوبة ، إن هنالك الكثير مما يجب روايته ومما يروع الأفئدة ، لقد شهدت أخطارًا وأهوالاً ، وإنها لرواية طويلة لا أريد الحديث عنها إلا فى الوقت المناسب ، إن يوم القيامة هو اليوم الذى سينتقم فيه اللّه من هذه الشناعات المزريات فى بلاد الهند ، تلك التى ارتكبها من يحمل لواء المسيحية . (زورًا وبهتانًا) .

وكان فى هذه المناطق شعب آخر يعيش عند خليج « كوديرا » وكان زعيمه يسمى « هيغوروتو » وهو اسمه الشخصى واللقب الذى يُطلق على كل زعيم أو شريف هناك ، كان طيبًا ودودًا ، وكان شعبه مثله يتحلى بالفضائل والخصال الحميدة ، إذ كان كل الإسبان الذين يعبرون بهذا الخليج يجدون عندهم حسن الضيافة والرعاية ، ولقد أنقذ هذا

الزعيم كثيرًا من الإسبان حين كانوا يتعرضون للمخاطر ، كانوا يأتون إليه ، يقتلهم الجوع فيئويهم ويطعمهم ويسقيهم ، ويردهم إلى مآمنهم في جزيرة اللؤلؤ حيث يعيش المسيحيون ، وقد كان يستطيع أن يقتلهم دون أن يعلم أحد بذلك ، ولكنه لم يفعل ، بل إن الإسبان أطلقوا على بلاد « هيغوروتو » اسم « نزل الراحة العام » ، غير أن طاغية إسبانيًا قرر الهجوم على هذه البلاد الآمنة المطمئنة ، فتوجه إليها على متن سفينة ، ثم دعا عددًا كبيرًا من الهنود أن يصعدوا إليها ، وصدق الهنود أنه لن يؤذيهم ، لكنه رحل بهم إلى جزيرة سان خوان وباعهم عبيدًا ، وكنت قد وصلت آنذاك إلى هذه الجزيرة ، ورأيتُ ما ارتكبه هذا الظالم بحقّ هذا الشعب الوادع ، حتى الإسبان الطغاة لامُوه على ما فعل ؛ لأنهم فقدوا ملاذهم و « نزل الراحة » .

وإننى أكرر وأقول إننى لا أروى إلا يسيرًا من الآثام والشناعات التى ارتكبها الإسبان فى هذه الأراضى .

موت مليونى شخص بالتعذيب :

لقد ساق الطغاة الظالمون إلى الجزيرة الإسبانية وإلى جزيرة سان خوان أكثر من مليونى هندى برئ أعزل ، التقطوهم على طول ذلك الساحل الذى كان يعج بالبشر ، ولقد مات المليونان كلهم بالتعذيب الذى لاقوه أثناء عملهم فى المناجم ، وإننى لا أذكر هنا العدد الهائل من الأهالى الذين قتلهم المسيحيون على الساحل ، إنه لمشهد تنفطر له القلوب حين ترى هذا الساحل الذى كان سعيدًا وقد تحول إلى سباسب[1] مقفرة .

(1) السباسب : القفار والصحارى .

إلقاء الهنود فى البحر :

إننى أعلن حقيقة لا ريب فيها حين أقول : إن كل سفينة إسبانية كانت تنقل هنودًا لبيعهم ترمى فى البحر بثلث حمولتها على أقل تقدير ، قبل أن تصل إلى مرساها ، كان الإسبان يرمون إلى البحر كل هندى ضعيف أو مريض[1] ، وكان الهنود يحتضرون فى السفن لأن الإسبان كانوا يرفضون إطعامهم والإنفاق عليهم ، أما الطعام فكانوا لا يحملون منه إلا ما يكفيهم هم فقط ، ولذلك لم يكن يصل من الهنود إلى المرافئ إلا القلة القليلة التى استطاعت أن تصبر على الجوع والعطش ، وقد أخبرنى أحد هؤلاء الطغاة أنه أبحر مرة من « لوكايس » إلى هذه الجزيرة دون أن يستعين بخريطة أو بوصلة ، كان يقتفى جثث الهنود التى أُلقيت بكثرة على طول الطريق بين « لوكايس » وبين الجزيرة الإسبانية ، أى على مسافة 70 فرسخًا .

توزيع الهنود كالأغنام :

وقد رأيت مرة ، ما يفطر القلوب ويفتت الأكباد ، رأيت السفينة حين وصلت إلى الجزيرة ونزل منها الهنود الذين سيُباعون ، كان الأطفال والنساء والشيوخ والرجال عراة يَتَساقطون أرضًا وينهضون ويسقطون من شدة الجوع ، بعد ذلك يأتى الإسبانى فيُعاملهم كما تعامل النعاج : يفصل الآباء عن الأطفال ، والزوجات عن أزواجهن ، ويصنع منهم قطعانًا ، كل قطيع من عشر أنفس أو عشرين نفسًا ، بعد ذلك تجرى القرعة لتوزيع هؤلاء المساكين على الإسبان من أصحاب السفن والطغاة واللصوص ، وحين يرى أحد الطغاة عجوزًا هنديًا بين

(1) وهكذا فعل أحفادهم بالأفارقة الأبرياء .

قطيعه يصرخ غاضبًا : هذا العجوز ليذهب إلى جهنم ، لماذا تعطونى هذا العجوز ؟ ألأدفنه ؟ أَلأُطَبِّبه ؟ هيا اقتلوه ، هكذا عامل الإسبان الهنود ، وهكذا نفذوا وصايا الرب وحب الغريب الذى أوصت به المسيحية ودعا إليه الأنبياء .

تسخير الهنود فى استخراج الذهب واللؤلؤ والمحار :

ولدى الإسبان نوعٌ آخر من الطغيان لا يوجد له مثيل فى هذا القرن ، ولا يمكن أن يجاريه أى عمل جهنمى ، بما فى ذلك تسخير الهنود لاستخراج الذهب من المناجم على ما فى هذا العمل من قسوة ووحشية ، إننى سأتحدث عن تسخير الهنود فى صيد اللؤلؤ ، كان الإسبان يمسكون بشعور الهنود ويلقون بهم فى البحر من الفجر ، ويجبرونهم على أن يبقوا معظم هذا الوقت تحت المياه يصطادون المحار ، ثم يملأون به شباكهم الصغيرة ويصعدون ، يصعدون ليتنفسوا فقط ، ويوجد إلى جانبهم عادة جلاد إسبانى ينتظر الغواص الهندى على مَتْن زَوْرقه ، حتى إذا وجد أن الهندى قد أمضى فوق الماء فترة أطول مما يلزم لتنفسه يُمْسكه مجددًا من شعره ويرميه إلى الأعماق .

موت الهنود جسدًا وروحًا :

وفى الليل كانوا يربطونهم إلى الأرض ويوثقونهم بها حتى لا يهربوا ، وكان الهندى المسكين فى معظم الأحيان يغوص لصيد اللؤلؤ فيصطاده سمك القرش والحيتان الكبيرة ، وهى حيوانات بحرية فتاكة كانت تلتهمهم ، فليحكم المرء بنفسه إذا كان الإسبان الذين يكرهون الهنود على صيد اللؤلؤ يتبعون تعاليم اللّه ؟ كانوا يجبرون الهنود على

الموت جسدًا وروحًا ، ذلك لأن هؤلاء المساكين يلفظون الروح بلا إيمان ولا قربان مقدس ، كل ذلك يقوم به الإسبان جشعًا ، فهم يقتلون الهنود بأعداد كبيرة جدًّا ، وخلال فترة قصيرة . فهل يعقل أن يعيش الإنسان فترة طويلة تحت الماء بدون تنفس ؟ إن برودة المياه تتغلغل فى أجسادهم .

أما من لم يمت تحت المياه فإنه يموت فوق البر بعد يوم أو يومين وهو يبصق الدم بغزارة ، أو يُصاب بالإسهال الحاد لكثرة ما ابتلع من تلك المياه الباردة ، إن شُعُورهم الفاحمة السَّوداء تبدو كأنها محروقة أو أشبه بوبر ذئاب البحر ، بل ينبت فى ظهورهم ما يشبه ملح البارود ، وتتحول هذه الكائنات البشرية المسكينة إلى وحوش ذات طبيعة بشرية ، ويخيل إليك وأنت تنظر إليها أنها كائنات من عالم آخر ، لقد فتك الإسبان بهذا الاستعباد الجهنمى بكل هنود جزر « لوكايس » حين ابتدأوا بتجارة اللؤلؤ ، كانوا يبيعون الهندى بخمسين أو مائة قشتالية فى الأسواق العامة ، والمعروف أن هنود هذه الجزر ماهرون فى السباحة ، أما حين مات كثير منهم بسبب صيد اللؤلؤ فقد استورد الإسبان المجرمون أعدادًا كبيرة من هنود الجزر المجاورة لتلك الغابة .



عن نهر يايا بارى

ذبح الهنود وإحراقهم :

يجرى فى منطقة « بارى » نهر يُسمى بـ « يايا بارى » وذلك على مدى مائتى فرسخ داخل اليابسة ، وفى عام 1529 م جاء طاغية جبار إلى منابع هذا النهر يصحبه أكثر من 400 رجل ، وارتكب جرائم عديدة ، فأحرق كثيرًا من البشر أحياء ، وذبح بشَفْرة السيف عددًا كبيرًا من الأبرياء الذين كانوا يعيشون فى تلك المنطقة لا يؤذون أحدًا ولا يكنون شَرًّا لأحد ، لقد أرهب الأهالى وَهَجَّرَهُم من بلادهم التى لم يتركها إلا قاعًا صفصفًا ، ثم توفاه اللّه ، وتفرقت حملته ، لكن طغاة أقسى منه قلبًا جاءوا بعده فَبَزُّوهُ جبروتًا وآثامًا ، وما زالوا هنالك إلى الآن يعيشون فسادًا وإجرامًا ، ويرسلون إلى جهنم أنفسًا فداها المسيح بدمه .



حول المناطق البرية والساحلية المسماة بفلوريدا

الجزاء من جنس العمل :

فى عام 1510 م أو 1511 م وصل ثلاثة من الطغاة إلى هذه المناطق فارتكبوا فظاعات الآخرين ، لعلهم ينالون ما لا يستحقونه ، متوسلين إلى ذلك إهراق الدم والفتك بالناس ، وقد مات ثلاثتهم شَرَّ ميتة ، وانهارتْ عليهم البيوت التى شيدوها فوق دماء البشر ، كنت أعرفهم جميعًا ، ولقد محيت ذكراهم من على وجه الأرض ، ويا ليتهم لم يعيشوا أبدًا ، فقد تركوا وراءهم مناطق ترتجف خوفًا إذا ذُكرت أسماؤهم ، ويعمها القرف والهول مما سفكوه من دماء ، إن أرواحهم قبضت قبل أن يذبحوا المزيد من الهنود ، لكن طاغية رابعًا وصل إلى فلوريدا فى عام 1538 م مع عدد من رجاله ، ولم يسمع أحد بشىء من أخباره منذ أكثر من ثلاث سنوات ، فهو لا يظهر للعيان ، لكننى متأكد من أنه ارتكب المذابح لحظة وصوله ، ثم اختفى خوفًا من الانتقام ، أما إذا كان حيًا فإننى أشفق من الخوف على أهالى تلك البلاد لأنه من أكثر الطغاة خُبْثًا وقسوة ، ولقد قام رجاله بمذابح فى عدد من بلاد الهند وفتكوا وأحرقوا ، ولقد علمت بعد كتابة ما كتبت أنه هَلَكَ منذ فترة ، وعرفت مدى الجرائم العجيبة التى اقترفها هو وصحبه الذين لا يملكون قلوبًا ، وهذا يؤكد ما قلته من قبل ، فكلما طال زمن الفتح الإسبانى زادت وحشية الإسبان وقسوة قلوبهم ، فبطشوا أكثر ونَحَروا المزيد .

وآه . . . إننى مَلَلت من سَرْد كل هذا الرُّكام من الجرائم ، ومن

وصف هذه السلسلة الطويلة من المذابح ، لأننى لا أتحدث عن أفعال بَشَر ، بل عن أفعال بهائم تعيش فى الغابات .

ربط الهنود وقطع رقابهم :

لقد ارتكب هذا الطاغية المذابح فى فلوريدا من أجل التخويف والإرهاب ، وتفنن فى التعذيب ، فكان يربط الهنود وهم يعملون ، عشرات عشرات ، بحبل واحد ، فإذا سقط أحدهم من الإرهاق قطع رأسه وترك الجسد على الأرض ، لكى لا يضطر إلى فَكّ الحبل .

ذبح الرجال والنساء والأطفال :

وعلمت أن الإسبان دخلوا قرية فاستقبلهم أهلها بالترحاب ، ثم أطعموهم ، وخصصوا لهم 600 هندى لخدمتهم وحمل أثقالهم ، غير أن الإسبان - ولم يكادوا يرتاحون من وعثاء السفر - بدأوا بتقطيع الرءوس ، ولما رأوا بعض الهنود حذرًا منهم ذبحوهم بالجملة ، رجالاً ونساء وأطفالاً .

التمثيل بجسد الهنود :

وأحضر الطاغية (كما قيل لى) مائتى هندى ، وراح يتسلى بهم : منهم من جَدَع أنفه ، ومنهم من قطع شفته السُّفلى أو شق فكه ، كان يتسلى بتغيير ملامح الوجه . . ثم أرسلهم جميعًا إلى أهاليهم ، بلا أنوف أو بلا شفاه ، أو بلا آذان ، فعادوا يسيلون دمًا ، هكذا عادوا ومعهم « بشارة » المسيح ، وبشرى مجىء المبشرين المسيحيين القادمين لنشر الإيمان الكاثوليكى وتعميد الهنود ، وليخمن القارئ مدى ما يكنه الهنود من حب للمسيحيين ، وأية صورة يعرفونها عن ربهم ودينهم .

وآه كم هى كبيرة وعجيبة تلك الجرائم التى ارتكبوها باسم التبشير .

عن « ريو ديلا بلاتا »

مذابح ودماء :

ابتداء من 1522 م اجتاح قادة إسبان منطقة « ريو ديلا بلاتا » أربع مرات ، وكان فى هذه المنطقة ممالك عظيمة وشعوب وهبها اللّه الحكمة والعقل ، إننا نعرف أنهم ارتكبوا فيها المذابح المريعة وأصابوها بالأضرار الفادحة ، وبما أنها منطقة نائية معزولة عن باقى بلاد الهند فإننا لا نملك ما نضيفه على ما جرى فى المناطق الأخرى ، غير أننا لا نشك فى أنهم ما زالوا يرتكبون إلى الآن الفظائع التى ارتكبوها فى أماكن أخرى فهم مِلّة واحدة مجرمة عاثت فسادًا فى كل هذه البلاد ، وهم جميعًا يريدون الثراء والسيادة التى لا يستطيعونها إلا بالذّبح والقتل والنّهب .

إخلاء الأرض من أهلها :

ولقد علمتُ أخيرًا أنهم أفنوا مساحات هائلة وممالك شاسعة من هذه المنطقة ، بل ارتكبوا فيها مذابح أفظع مما ارتكبوه فى غيرها من البلاد ، نظرًا لنأيها وبعدها عن إسبانيا ، ولقد عاشوا هناك بلا نظام ولا عدالة ، أقول ذلك وأنا أعلم أن كل بلاد الهند لم تعرف نظامًا أو عدالة [مع وصول الإسبان] ، وقد علمت أنهم قتلوا خمسة آلاف نفس بحد السيف حين رفض الهنود تقديم الطعام لهم ، لا عن بخل ، بل عن خوف ، فقد سبق أن ذبحوا عشرات الألوف من أهاليهم ، وَرُوِيَتْ لى حادثة أخرى عن هنود استدعاهم الإسبان لخدمتهم فلم يسرعوا فى المجىء ، أو أنهم تأخروا فى الوصول ، فجاء إليهم الإسبان لقتلهم ، واختبأ الهنود وصاروا يصيحون : لقد جئناكم مسالمين لخدمتكم فها أنتم تقتلوننا ، لتبقَ دماؤنا على هذه الجدران تشهد على موتنا دون سبب ، وتشهد على جوركم ، وإنه لكلام يذكر ويستدعى الأسف .

عن ممالك عظيمة
ومناطق كبيرة من البيرو

وفى عام 1531 م توجه طاغية آخر ، مع فرقة من جنوده ، إلى ممالك البيرو ، وفعل فيها ما فعله الطغاة الآخرون فى الممالك الهندية الباقية ، كان من أكثر الطغاة إجرامًا ، لم يعرف قلبه الإيمان ، وهو منكر لكل قانون ، بشريًا أو دينيًا ، ولهذا فقد أفرط هذا المجرم فى الفظائع والمذابح وفى السلب والنهب ، فدَمَّر القُرى وأهان أهلها وقتلهم ، وكان سببًا فى الكثير مما أصاب هذه المناطق من مظالم ، وإننى على يقين من أن أحدًا لن يتوصل إلى سَرْد ما حصل أو توضيحه ، حتى يوم القيامة يوم يُعرف المجرمون بسيماهم ، ولقد أردت أن أصف بعض هذه الفظائع ، غير أننى عاجز عن ذلك .

جزاء الضيافة ذبح المُضِيف :

كان هذا المجرم قد سرق الذهب من هذه الشعوب ، وفى جزيرة « بوما » القريبة من هذه المقاطعات ، وهى مملكة جميلة سعيدة عامرة بالسكان ، رحب الشعب وملكه بهذا المجرم وجنوده ، واستقبلهم كأنهم ملائكة أُنزلت عليه من السماء ، وفى ستة أشهر التهم الإسبان كل ما ادخره الهنود من أغذية ، ومع ذلك فقد كشف الهنود عن إهراء القمح حيث يخبئونه إلى أيام القحط والجفاف ، ثم قدموه للإسبان ، وهم ينتحبون : إنه لكم ، وشكر لهم الإسبان كرمهم بأن ذبحوا من استطاعوا منهم واستعبدوا الآخرين ، ثم تركوا المملكة خاوية من أهلها .

ومن هناك انطلق الإسبان إلى منطقة « تومياﻻ » فى اليابسة فقتلوا ودمروا ما استطاعوا ، وحين شاهدوا الناس يهربون من فظائعهم ، قالوا : إنهم يتمردون على الملك ، وإنهم ليسوا من أتباعه بعد اليوم ، وكان هذا الطاغية حاذقًا يطلب المزيد من الذهب والفضة منهم ، وحين لا يبقى لديهم شىء منه يصافحهم ويقول : إنهم صاروا أهلاً بأن يكونوا أتباعًا لملك إسبانى ، ثم يأمر جنوده بأن ينفخوا فى البُوق ، هكذا يصدق الهنود أنهم دفعوا الثمن اللازم لكى يصيروا فى رعاية ملك إسبانيا وحمايته .

خنقوا الملك ثم حرقوه :

بعد بضعة أيام جاء إمبراطور هذه الممالك كلها واسمه « أتاهوالبا » ، ومعه حاشيته ، وهم بشر ليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم ، ويحملون أسلحة تضحك الأطفال ، ولم يكن هذا الإمبراطور يعرف بعد ، كيف تقطع السيوف ، أو كيف تجرح الرماح ، أو كيف تعدو الخيول ، ولم يكن يعلم من هم الإسبان الذين يهجمون على الشياطين ، إذا عرفوا أن لديها ذهبًا ، وينهبونه منها ، وصل هذا الإمبراطور السَّاذج إلى حيث يوجد الإسبان ، وقال ببراءة : أين هم الإسبان ؟ ليتفضلوا ويمثلوا أمامى ، إننى لن أتحرك من هنا إلى أن يعوضنى الإسبان عما قتلوه من أتباعى ، وما أحرقوه من قراى ، وما نهبوه من ثروات شعبى .

وجاءه الإسبان : لا ليمثلوا أمامه ، بل ليعطوه درسًا في وحشيتهم ، وراحوا يقتلون ما استطاعوا من جماعته ، ثم قبضوا عليه ، وسجنوه ، وهو ما يزال على محفته الملكية ، بعد ذلك طالبوه

بفدية فوعدهم بما يعادل أربعة ملايين قشتالية [القشتالية عملة ذهبية تعادل 4,6 غرامات] لكنه أعطاهم ما يعادل 15 مليونًا ، فوعدوه بإطلاق سراحه ، ولم يفوا بوعدهم طبعًا ، ومتى صدق الإسبان بوعودهم للهنود ؟.

وأعلن الإسبان أنهم سيحرقونه حيًا ، لكن أصواتًا إسبانية نادت بخنقه ثم حرقه ، وحين علم الإمبراطور بمصيره قال للإسبان : ولماذا تحرقوننى ؟ ماذا فعلت لكم ؟ ألم تعدوننى بأنكم سوف تطلقون سراحى إذا ما أعطيتكم ذهبًا ؟ ألم أُعطكم أكثر مما وَعَدْتكم ؟ لماذا لا ترسلوننى إلى ملككم فى إسبانيا ؟

لكن أسئلته لم تلاقِ إلا جوابًا واحدًا : الخنق والحرق .

الراهب يحكى ما حدث فى البيرو :

ولسوف أذكر هنا بعض الحوادث التى ارتكبها أدعياء المسيحية والتى نفذوها من أجل إبادة هذه الشعوب ، وأنقل هنا رواية أحد الرهبان من رهبانية القديس فرانسوا ، وهى رواية موقعة باسمه ومكتوبة بخط يده ، وقد أرسل بنسخ منها إلى ممالك قشتالة ، وهذه مقاطع من النسخة التى أملكها وقد جاء فيها :

« وأنا الراهب الأخ (ماركوس دونيزا) من رهبانية القديس (فرانسوا) ، كنت مع أول رهبان دخلوا إلى هذه المناطق مع المسيحيين الأوائل ، وإننى أُعلن بأننى أشهد شهادة حقيقية على بعض ما رأيته بعينى فى هذه البلاد ، خاصة مشاهد الغَزْو والطريقة التى عامل بها الإسبان سُكّان البلاد » .

مسالمة الهنود وجبروت الإسبان :

« إننى شاهدت بعينى ، وفَهمت من تجربتى أن هنود « البيرو » من أكثر الهنود تسامحًا ، ولقد تحالفوا فى البداية مع المسيحيين وصادقوهم ، ورأيتهم يعطون المسيحيين كثيرًا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، كانوا يعطونهم كل ما يملكونه ، ويخدمونهم على أفضل وجه ، لم يكن الهنود فى يوم من الأيام محاربين أو مستعدين للحرب بل كانوا مسالمين آمنين إلى أن استفزهم الإسبان بمعاملتهم السيئة وفظاظتهم » .

أعطاهم الذهب وما يملك ثم أحرقوه :

« وأود أن أصرح بما كنت شاهدًا عليه : حين دخل الإسبان إلى أراضى هؤلاء الهنود (فى البيرو) أعطاهم الزعيم « أتاهوالبا » من الذهب ما قيمته مليونًا قشتالية وكل ما يملكه من الأراضى ، وبدون مقاومة عندها وبدون سبب أحرق الإسبان الزعيم « أتاهوالبا » ، ثم أحرقوا قبطانه العام حيًا ، واسمه « كوشيلماكا » . وكان « كوشيلماكا » قد جاء ليرحب بالحاكم [الإسبانى] يصحبه زعماء آخرون .

إحراق الزعماء والأشراف :

وبعد أيام أحرق الإسبان « شامبا » وهو زعيم مرموق آخر من مقاطعة « كويتو » ، علمًا بأنه لم يؤذهم ولم يذنب ذنبًا ، كذلك أحرقوا ظلمًا وتعسفًا «شابرا » زعيم الكناريين ، وأحرقوا أقدام أحد زعماء « كويتو » الكبار ، وعذبوه طويلاً ليعترف لهم بمكان الذهب ،

وكان المسكين يجهل كل شىء عن هذا الأمر ، وفى « كويتو » نفسها أحرق الإسبان « كوزوبانغا » حاكم كل مناطق « كويتو » لأنه رفض تسليم كل ما لديه من ذهب ، كما أحرقوا معه كثيرًا من شيوخ القبائل ، ولقد قيل لى بعد ذلك : إن الإسبان قد خَططوا أن لا يبقوا زعيمًا هنديًا على قيد الحياة » .

جمع الهنود ثم إحراقهم :

« وإننى أُصَرّح أيضًا بأن الإسبان قد جمعوا عددًا كبيرًا من الهنود وسجنوهم داخل منازل ثلاثة كبيرة حشروهم فيها ثم أحرقوهم دون أى سبب ، ولقد استطاع أحد الرهبان أن « يستخرج » صبيًا من النار ، لكن إسبانيًا آخر هجم عليه وسحب الطفل من يديه ورماه فى اللهب حيث صار رمادًا مع الآخرين ، وفى ذلك النهار توفى هذا الإسبانى فجأة وهو على الطريق ، ورفضت أن أدفنه » .

قطع أيدى الهنود وآذانهم :

إنى أصرح أيضًا بأننى شاهدت الإسبان يقطعون أيدى الهنود والهنديات من غير سبب ، ويجدعون أنوفهم ويقطعون آذانهم ، ورأيت الإسبان يقومون بصيد نادر ، إذ كانت كلابهم السّلوقية تطارد الهنود وتلتهمهم ، أو أن الإسبان أنفسهم يرمون بالهندى إلى كلابهم السلوقية لتأكله .

قذف الأطفال فى الهواء :

كما رأيتُ الإسبان ينتزعون الرضيع من بين يدى أمه ، ويلوحون به فى الهواء ، ثم يقذفونه إلى أبعد ما يستطيعون . رأيت تعسفًا شديدًا

وجورًا كثيرًا تهلع له القلوب ، ولم أنجح فى منعهم عن حرق الهنود ، وإننى أُعْلن أمام اللّه وضميرى أن هنود البيرو لم يتمردوا على الإسبان إلا لأن هؤلاء عذبوهم أشد العذاب .

« وإننى أصرح أيضًا ، وفقًا لحكايات الهنود ، أن الذهب الدفين أكثر من الذهب المرئى ، وأن الهنود لم يريدوا الكشف عنه بسبب ما تعرضوا له من ظلم ، لقد ابتذل الإسبان طاعَةَ اللّه بما ارتكبوه من فظائع ، وأهانوا [الملكة] جلالتها بما عملوا من فساد فى هذه الأرض التى تستطيع أن تطعم كل قشتالة . . . » .

هذا هو كلام الراهب بالحرف ، وقد وقَّع عليه مطران مكسيكو وشهد على صحبة ما صرح به الأخ « ماركوس » ، وما قاله هذا الراهب حصل فعلاً بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من « الفتح » حين كان الإسبان قِلّة ، أما حين سمع الإسبان بأخبار الذهب فأسرع أربعة آلاف أو خمسة آلاف منهم إلى بلاد الهند واجتاحوا منطقة تتجاوز 700 فرسخ ، وراحوا يَسْرقون ويقتلون ، ومنذ تلك الفترة حتى اليوم أباد الإسبان بشرًا أكثر مما ذكرت بألف مرة ، لقد أريق دم جزء كبير من الإنسانية دون خوف من اللّه أو الملك ، وقَتَلَ الإسبانُ فى هذه الممالك (فى البيرو) أكثر من أربعة ملايين نسمة ، وما زالوا .

تعذيب زوجة الملك « الينغ » وقتلها :

وقبل بضعة أيام عذبوا بعيدان القصب المبرى ملكة عظيمة ثم قتلوها ، وكانت هذه الملكة زوجة الملك « الينغ » الذى يحكم كل هذه المناطق وحين هرب الملك من وجه الإسبان عذبوا زوجته وقتلوها .



فهرس الكتاب



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 9496 / 2007م

الترقيم الدولى : 0 - 317 - 297 - 977